

2 me Année, No. 55.

Lundi-23-7-1934

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع الساحة رقم ٣٩

بالقاهرة

تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

العـــدد ٥٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ — ٢٣ يوليه سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

بمناسبة ذكرى حافظ

بين السياسة والأدب

ينظر الأدب المصرى اليوم الى السياسة نظر المَغيظ الحانق لطغيان جلالها على جلاله ، وعدوان سلطانها على استقلاله ، وعبث أهلها بأقدار أهله عبث الهوى المتحكم بقوانين العدالة !

شهد الأدب فى هذه الأيام جنازة سياسية لمرقص حنا باشا، وجنازة أدبية لأحمد زكى باشا ، وسمع بذكرى سياسية لسينوت حنا بك ، وذكرى أدبية لحافظ ابراهيم بك ؛ فأما الجنازة السياسية والذكرى السياسية فكانتا مظهرين من مظاهر الوطنية الرائعة ، ومظاهرتين من مظاهرات القومية المتحدة ، شملت البلاد ، وشغلت الصحف ، وأرهفت الشعور ، وأرهبت الحكومة ، ونفّست عن العاطفة العامة المكروبة ؛ وأما الجنازة الأدبية والذكرى الأدبية فكانتا شاهدين على هذا التواضع المسكين الذى يصاحب العلم ، وأثرين لهذا البؤس المهين الذى يلازم الأدب ، فشيّع الأولى بعض الأصدقاء وبعض الخاصة ، ونسى الثانية كل الأصدقاء وكل الخاصة ، ثم تهامست بين الناس الشكاوى ، وتملقت من الأنصار المعاذير ،

وتجاوبت فى الأقطار الشقيقة أصداء الأسف ، ونعى كاتب سورية الكبير صاحب (فتى العرب) على مصر عقوق الأدباء وجحود العباقرة ؛ وليس الأمر فى نظرنا مما يبعث الشكوى من السياسة ويثير السخط على الجمهور ، ويستوجب الملامة على مصر ، فان السياسة تقوم بواجبها ، ولا تحول بين أحد وبين واجبه .

السياسة عقيدة ، والعقيدة تحييها الشعائر ، وتنميها المظاهر ، ويقويها الحشد ، وينشرها الاعلان ، ويديمها التذكير ، وتجددها الدعاية .

والسياسة مبدأ ، وهذا المبدأ نفسه يريد أن يكرم فى ذكرى الميت كما كان يكرم فى وجود الحى ، وما حالات السياسى إلا مناسبات يُهتف فيها بفكرته لا بصورته .

والسياسة جهاد ، والجهاد يدعو بتكريم البطولة الى البطولة ، وبتعظيم التضحية الى التضحية .

والسياسة حكومة وخصومة ، ومن حق السياسة المكبوتة أن تتلمس الحرية فى كل فرصة ، وتتنشق الراحة من كل فُرْجَة

والسياسة جاه وقوة ، ومن طبيعة النفوس أن تشايع الجاه وتبايع القوة ابتغاء لمنفعة أو اتقاء لمضرة

والسياسة بعد ذلك كله للشعب ، فرجالها زعماؤه ، وضحاياها شهداؤه ، ومواقفها مواقفه

أما الأدب فلا نصيب له من بعض ذلك ، ليس عقيدة للعامة ، ولا فكرة للأمة ، ولا ساحة للنفوس المجاهدة ، ولا مطمعة للعيون الرغيبة ؛ إنما هو فن الخاصة وبغية الرجل المثقف ، فاذا لم يحتفل أهله بأهله ، وينوه جمهوره بفضله ، ذهب أثر رجاله من الدنيا كما تذهب أنغام موسيقى الجيش بعد المعركة ، ثم لا يبقى الفخر والذكر إلا للجند والقادة

* * *

الأدباء هم الملومون على هذا العقوق ، والصحفيون هم المسئولون عن هذا الأهمال ، وشهوة المنافسة وعداوة الحرفة ، هما اللتان تفسران البواعث على هذا والدوافع الى ذاك ؛ والأديب الذى يَنْفَس على أخيه محنة الوجود ، يجد الأولى أن ينفس عليه نعمة الخلود ، والأدب فى الحياة وفى الممات شر على صاحبه ، فإنا لا نزال نشهد كل يوم معارك الأهواء بين الأدباء الأحياء تقطع وشائج الصداقة ، وتخفى دلائل النبوغ ، وتزيف حقائق الفضل ، ثم لا تترك منهم للتاريخ إلا أشلاء منكرة من الأدب والفن والخلق . ولا نزال نسمع من يذكر المنفلوطى بالسوء لأنه اصطنع الأدب الباكى ، كأن للكاتب يداً فى تركيب مزاجه ، وتكوين بيئته ، وتأليف ظروفه ، وتثقيف ملكاته . كذلك لا نزال نسمع من يشدد النكير على شوقى لأنه عالج فى بعض عمره شعر المديح ، كأنه نشأ فى ظل الدستور وعهد الديمقراطية وعصر الجماعة ، وكأنه كان يمدح عباساً لأن المتنبى كان يمدح سيف الدولة !

* * *

نعم كان أمس ذكرى حافظ ، وكان أول أمس ذكرى سينوت ! فهل رأيت بعينك وفاء السياسة وجحود الأدب ؟ . إن حافظاً رحمه الله ما يزال يقتضى أصدقاءه الخُلّص حفلة التأبين وتأليف الكتاب ، فهل من المعقول أن نطلب من شعبه المغلول إحياء الذكرى وإقامة التمثال ؟

ولقد كان من جرائر نحسه الذى ظل بعد موته حياً يعيث ، أن مواهبه السامية فى الشعر والبلاغة قد أخذ ينالها النسيان وتشوهها الغفلة ، فما يذكره الناس حين يذكرونه إلا بحلاوة النادرة وبراعة (النكتة) وحسن الحديث ، حتى خشينا أن يصبح فى الخاصة ما أصبح أبو نواس فى العامة . !

* * *

فَمَنْ مُبْلغٌ حافظاً الصديق أن المودة بعده أصبحت لا تبقى على المحن ، ولا تقوى على الأهواء ، ولا تثبت للظروف ، ولا تتجاوز كذب الحياة الى صدق الموت !

ومَنْ مبلغٌ حافظاً الأديب أن الأدب بعده أصبح داء كداء الضرائر ، تهيمن عليه المنافسة الكاذبة ، وتغض منه المحاسدة اللئيمة ، وتتحكم فيه الأغراض الحقيرة ؟

ومَنْ مبلغ حافظاً الفنان أن فنه الجميل سيبقى على لؤم الانسان وظلم الزمان ، رائعاً ما راع الجمال ، ساطعاً ما سطعت الشمس ، خالداً ما دام هذا الخلود ؟ ! .

احمد حسن الزيات

ســـمُوُّ الفقـــر
فى المصلح الاجتماعى الأعظم
للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

– ٢ –

قالت عائشة رضى الله عنها : لم يمتلئ جوف النبى صلى الله عليه وسلم شبعاً قطّ ، وإنه كان فى أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهّاه ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب .

وقالت : ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعنها : كنا آلَ محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار ، إن هو إلا التمر والماء .

وقالت : ما رَفع رسول الله صلى الله عليه وسلم قط غداءً لعشاء ، ولا عشاء لغداء ، ولا اتخذ من شىء زوجين ، لا قميصين ، ولا رداءين ، ولا إزارين ، ولا زوجين من النعال .

ويروى عنها ، قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندى شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رفّ لى .

وقالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعاً من شعير .

وعن ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالىَ المتابعة وأهلَه طاوياً لا يجـــدون عشاءً ، وإنما كان خبزهم الشعير .

وعن الحسن ، قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « والله ما أمسى فى آل محمد صاعٌ من طعام ، وإنها لتسعة أبيات » والله ما قالها استقلالاً لذكر الله ، ولـكن أراد أن تتأسّى به أمته .

وعن ابن بجير ، قال : أصاب النبىَّ صلى الله عليه وسلم جوعٌ يوماً فعمد الى حجر فوضعه على بطنه ثم قال : « ألا رُبَّ نفس طاعمةٍ ناعمةٍ فى الدنيا – جائعةٌ عاريةٌ يوم القيامة ؛ ألا ربَّ مُكرمٍ نفسه وهو مهين لها ؛ ألا رب مهين نفسه وهو مكرم لها »

وخُـيّـِرَ صلى الله عليه وسلم أن يكون له مثل « أُحد » ذهباً فقال : لا يارب ، أجوع يوماً فأدعوك ، وأشبع يوماً فأحمدك .

وكان يقول فى دعائه ويكثر منه : اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين .

***

هذا هو سـيد الأمة ، يمسكه فى الحياة نبياً عظيماً ما يُخرج غيره منها ذليــلاً محتقراً ، وكأنما أشرق صفاء نفسه على تراب الأرض فردّه أشعة نور ، على حين يُلقى الناس على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يبـقى تراباً ، بل يرجع ظلاماً ، فـكأنهم يطئون المجهول بخوفه وروعته ؛ ثم لا يستقر ظلاماً ، بل يرجع آلاماً ، فـكأنهم ينبتون على المرض لا على الحياة ؛ ثم لا يثبت آلاما ، بل يتحول فورة وتوثباً تـكون منه نزوات الحمق والجنون فى النفس . هؤلاء الذين تعيش أنفسهم فى التراب ، ويتمرغون بأخلاقهم فيه – ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناساً دُوداً لا يقع فى شىء إلا أفسده أو قذّره ؛ أو قوماً سوساً لا ينال شيئاً إلا نخره أو عابه ، فهم يوقعون الخلل فى نظام أنفسهم فاذا هى طائشة تخيّل لهم كأنما اختلت نواميس الدنيا ، وكأن الله قبضهم وبسط غيرهم ، وشَغَلهم وفرَّغ مَن عداهم ، وابتلاهم على مُسْكـَة الرزق بالشهوة المسعورة التى لا تتحقق ، فضربهم بالمجاهدة التى لا تنقطع ؛ وأنعم على غيرهم فى بسطة الرزق بالشجرة المسحورة التى لا تُقطع منها ثمرة إلا نبت غيرها فى مكانها .

إن ما وصفناه من فقر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يكن له عتيدٌ حاضر ، وأنه لم يجعل نفسه فى همّ المال ، ولا جعلته نفسه فى هم الفقر ، وأنه لقى الحياة حاملاً لا محمولاً ، واستقر فيها هادئاً لا مضطربا – كل ذلك إنما يثبت للدنيا أنه خلق وبُعث وعاش ليـكون درساً عملياً فى حل المشكلات الاجتماعية ، يعلّم الناس أنها لا تتعقّد بطبيعتها ، ولـكن بطبائعهم فيها ؛ ولا تستمر بقوتها ، ولـكن بامداد قواهم لها ؛ ولا تغلب بصولتها ، ولـكن بجَزَعهم منها ؛ ولا تُعضل من ذات نفسها ؛ ولـكن من سوء أثرهم عليها ، وسوء نظرهم لأنفسهم ولها .

فاذا قرأت الأحاديث التي أسلفناها فلا تقرأها زهداً وتقللاً ، ولا فقراً وجوعاً ، ولا اختلالاً وحاجة ، كما تترجمها نفسك أو تحسها ضرورتك ؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو صلى الله عليه وسلم ، ثم اقرأها شريعة اجتماعية مفصلة على طبيعة النفس ، قائمة على أن تأخذ نفس الانسان من قوى الدنيا عناصرها الحيوية ، لتعطى الحياة من ذلك قوة عناصرها . والحياة العاملة غير الحياة الوادعة ، هما ذكر وأنثى ؛ فأما الأولى فهي ما وصفنا وحكينا ، وأما الثانية فهي تَغَلُّل النعمة ، وإطلاق قانون التناسل في المال ينمى بعضُه بعضا ، وينبت بعضه على بعض ، ثم إقامة الحياة على الزينة ومقوِّماتها ، وقيام الزينة على الخداع وطبائعه ، فيُقْبِل المرء من دنياه على ما هو جدير أن يصرفه عنها ، ويحب منها ما كان ينبغى أن يباغضه فيها . وكل ما رأيت وعلمت فى رجل قُوَّته القوة فهو هناك ؛ وكل ما علمت ورأيت فى أنثى قوتها الضعف فهو هنا .

فالسواد الذى تراه فى فقره صلى الله عليه وسلم هو السواد الحىّ ؛ سواد الليل حول الروح النَّجْميَّة الساطعة ؛ وذلك التراب هو التراب الحىّ ؛ تراب الزرع تحت النضرة والخضرة ؛ وتلك الحاجة الجسميّة هى الحاجة الحية الدافعة الى حرية النفس ؛ وذلك الاقلال من فهم اللذة هو الاقلال الحىّ الذى يزيد قوة فهم الجمال فى السماء والأرض وما بينهما ؛ وذلك الضيق فى حيز المتاع للحاسة هو الضيق الحى الذى يوسع حيّز المتاع للروح . وبالجملة فذلك النقص من المادة لم يكن إلا لنفى النقص عن الفضيلة ، وذلك الاحتقار للعرَض الفانى الزائل هو المعنى الآخر لتقديس الخالد الباقى .

فليس هناك خبز الشعير ، ولا الجوع ، ولا رهن الدرع عند اليهودى . كلا ، كلا ، بل هناك حقيقة نفسية عقلية ، ثابتة متزنة . قائمة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، إلى الرفق والحلم والتواضع ، تخبر هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبى العظيم هو الرجل الاجتماعى التام بأخلاقه وفضائله ، وهو الذى بُعث لتنقيح غريزة تنازع البقاء ، وكسر هذه الحيوانية ، وقمع نزواتها ، وإماتة دواعيها ، والسمو بخواطرها فهو بنفسه صورة الكمال الذى بعث لتحقيقه ، وإثبات أنه الممكن لا الممتنع ، والحقيق لا الخيالى .

ليس هناك درع مرهونة فى ثلاثين صاعا ، ولا الفقر ، ولا خبز الشعير . كلا ، كلا ، بل هناك تقرير أن النصر فى معركة الحياة لا يأتى من المال والثراء والمتاع ، ولكن من المعاناة والشدة والصبر ، وأن التقدم الانسانى لا يباع بيعاً ، ولا يؤخذ هوناً ، بل هو انتزاع من الحوداث بالاخلاق التى تتغلب على الأزمات ولا تتغلب الأزمات عليها ، وأن هذا المال وهذه الشهوات — فى حقائق الحياة ومصائرها — ككنوز الأحلام لا تكون كنوزاً إلا فى مواضعها من أرض الغفلة والنوم ، فلا لذة منها إلا بمقدار خفيف من هذه الغفلة . وليس إلا الأحمق أو المخذول أو الضائع هو الذى يقطع العمر نائماً أبداً ليظل مالكاً أبداً لهذه الكنوز ، وهو يعلم أنه لا بد مستيقظ ، وأنه متى انتبه فى آخرته لم يجد منها شيئاً « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » .

كلا ، كلا ، ليس هناك فقر ولا جوع وما إليهما ، بل هناك وضع هذه الحقيقة : ينبغى أن تجد نفسك ، وموضع نفسك ، وإيمان نفسك ، وعزة نفسك ، فاذا أدركت ذلك ورفعت نفسك الى موضعها الحق ، وأقررتها فيه وحبستها عليه ، وحددتها بالانسانية من ناحية ، وبالله من الناحية المقابلة — رأيت إذن أن قيمتك الصحيحة فى أن تكون وسيلة تعطى وتعمل لتعطى ، لا غاية تأخذ وتعمل لتأخذ — ومهما ضيق عليك ، فانما أنت كالشجرة الطيبة تأخذ تراباً وتصنع حلاوة . وما قط نبتت شجرة فى مكانها لتأكل وتشرب وتختزن السماد والتراب ، وتحصنهما وتمنعهما عن غيرها ، ولو قد فعلت ذلك شجرة لكان هلاكها فيما تفعل ، إذ تحاول أن تضاعف فائدتها من قانون العالم ، فيكون طمعها سريعاً فى إفساد الصلة بينهما ، فلا يجد القانون فيها نظامه ، ومن ثم لا تجد فى القانون نظامها ، فيهلكها الذى كان يحييها ، وتستعبد لحظّ نفسها فيفقدها ذلك حرية الحياة التى كانت لها فى نفسها .

***

يقول نبينا صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن بكل خير على كل حال ، إن نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل . » فهذا هو أسمى قانون اجتماعى يمكن أن تظفر به الانسانية

وما يأتى لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعانى التى أومأنا إليها شعوراً اجتماعياً عاماً ، مقرراً فى النفس ، قائماً فيها على إيمان راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها ، وأن الناس كحب القمح فى السنبلة ليس لجميعه إلا قانون واحد ، فموضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها ، علت أو سفلت ، وكثر ماتأخذه أو قل ، وإذا كان أساس الحياة فى الحبة منها أن تجد قوامها وكفايتها من مادة الأرض فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها ، وأن يستمر النور من حولها يغمرها .

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال ، وإنها لتُنْزَع وما بها أنها نُزِعت ، ولكنها أدت ما تؤدِّى ، وانقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره ، وما اغتنت ولا افتقرت ، ولا أكثرت ولا أخفَّتْ ؛ بل حققت موضعها ، فانها ما نبتت لتبقى ، وما نمت إلا لينقطع نماؤها . وكذلك المؤمن الصحيح الايمان ، الصادق النظر فى الحياة ؛ هو أبداً فى قانون آخرته ؛ فهو أبداً فى عمل ضميره .

والناس فى هذه الحياة كحشد عظيم يتدفق من مضيق بين جبلين ينفذ إلى الفضاء ؛ فاذا هم أدركوا جميعاً أنهم مُفْضُون إلى هذه النهاية مرّوا آمنين وكان فى يقينهم السلامة ، وفى صبرهم الوقاية ، وفى نظامهم التوفيق ، وفى تعاونهم الحياة ؛ فهم بكل خير على كل حال ، مادام هذا قانون جميعهم ، فأيما رجل شذّ منهم فاضطرب فطاش هلك وأهلك من حوله ، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقبيه أهلك من حوله وهلك . والموت أشق الموت هنا — اعتبارُ الحاضر بنفسه ، والضجرُ منه ، وجعل الانسان نفسه غاية ؛ والحياة أهنأ الحياة ـ اعتباره بما وراءه ، والصبر على شدته ، وجعل الانسان نفسه وسيلة .

***

فذلك معنى خبز الشعير ، والقلة والضيق ، ورهن الدرع عند يهودى من سيد الخلق وأكملهم ، ومن لوشاء لمشى على أرض من الذهب . فهو صلى الله عليه وسلم يعلم الانسانية أن الرجل العظيم النفس لايكون فى الحياة إلا ضيفاً نازلاً على نفسه .

ومن معانى ذلك الفقر العظيم أن خبز الشعير هو رمز من رموز الحياة على التحلُّل من خلق الأثَرَة ، والبراءة من هوى الترف ؛ ورهن الدرع رمز آخر على التخلص من الكبرياء والطمع ؛ والعُسْرة رمز ثالث على مجاهدة الملل الحى الذى يفسد الحياة كما يفسد بعض النبات النبات . ومجموع هذه الرموز رمز بحاله على وجوب الايقاظ النفسى للأمة العزيزة التى تقود أنفسها بمقاساة الشدائد ومجاهدة الطباع ، لتكون فى كل فرد مادة الجيش ، وليصلح هذا الجيش قائداً للانسانية .

على أنه صلى الله عليه وسلم حثّ على طلب اليسار ، والتغلُّل من الأعمال الشريفة بالغلَّة والمال ، فقال : « إنك إن تدع عيالك أغنياء ، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » . ورأى عابداً قد انقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه ، ووصفوا له من زهده وعبادته ، فقال صلى الله عليه وسلم : من يعوله ؟ قالوا كلنا نعوله . فقال : كلكم خير منه ! . . إلى أحاديث كثيرة مرويّة ، هى تمام القانون الأدبى الاجتماعى فى الدنيا ، تثبت أن الحى إن هو إلا عمل الحىّ . ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحب شريعتها رجلاً فقيراً ، عاملاً مجاهداً ، يكدح لعيشه ، ويجوع يوماً ويشبع يوماً ، فلم يقلب يده فى تِلاد من المال يرثه ولم يجمعها على طريف منه يورّثه ـــ فذلك هو ما بيناه وشرحناه وذلك كالأمر نافذاً لارخصة فيه على ألاّ يتخذ الغنى من الفقير عبداً اجتماعياً ، لفقر هذا ولمال ذاك ؛ بل هى المساواة النفسية لا غيرها ، وإن اختلفت طبقات الاجتماع . والأكرم هو الأتقى لله ، بمعنى التقوى ؛ والأقوم بالواجب ، على معنى الواجب ؛ والأكفأ للانسانية ، فى معانى الانسانية .

فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقراً ، بل هو كما رأيت : ضبط السلطة الكائنة فى طبيعة التملك ، لقيام التعاون الانسانى على أساسه العملىّ ؛ هو المحاجزة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية يمنع أن تأكل مصلحةٌ مصلحةً فتهلك بها ، ويوجب أن تلد المصلحةُ مصلحةً لتحيا بها .

والنبى الفقير العظيم هو فى التاريخ من وراء كل هذه المعانى كالقاضى الجالس وراء موادّ القانون . صلى الله عليه وسلم . ؟

مصطفى صادق الرافعى

بين يدى شهرزاد

للأستاذ توفيق الحكيم

شهرزاد متكئة على الوسائد تنظر
باسمة فى حوض ماء من المرمر
وبين يديها الوزير قمر . . . .

شهرزاد — (فى مكر) أراك ياقمر تسرف فى إطرائى وتبخس قدر صديقك .

الوزير — لم أبخس قدره .

شهرزاد — (فى مكر) يخيل إلىّ أنك نسيت ماينكما من ود عجيب .

الوزير — (فى حدة) لم أنس شيئاً .

شهرزاد — (فى خبث) بلى !

الوزير — (فى حدة عمياء) انى لم أنس شيئاً . انما أبين لك لماذا أنت تحبينه أسمى الحب ، فلا تزعمى لى غير هذا مرة أخرى : انى لست أُخدع . لست أُخدع . لست أُخدع !

شهرزاد — (هادئة) قمر ؟ ماذا دهاك ؟

الوزير — (يثوب الى رشده) مولاتى مغفرة . . انى . .

شهرزاد — انك أحياناً لا تملك نفسك .

الوزير — إنى . . أردت أن أقول انك غيرته ، وأنه انقلب انساناً جديداً منذ عرفك .

شهرزاد — انه لم يعرفنى .

(يسمعان طرقاً شديداً)

الوزير — (يرهف السمع) هذا هو .

شهرزاد — ان شهريار يحمل دائماً مفتاحه ولا يدخل القصر ليلاً إلا من سردابه .

الوزير — مَن هذا الطارق اذن ؟

شهرزاد — اذهب وجئنى بالخبر .

(الوزير يخرج مسرعاً)

شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) مسكين أنت يا قمر !

(الوزير يعود على عجل)

قمر — مولاتى ! أتدرين من الطارق ؟ رجل عجيب الزى ، يقول انه المؤلف ، ويلتمس المثول بين يديك .

شهرزاد — (فى عجب) المؤلف ؟ أى مؤلف ؟

قمر — لم أفهم مراده . انما هذا ما قاله لى .

شهرزاد — أدخله لنتبين أمره .

قمر — أفى مثل هذه الساعة من الليل ؟

شهرزاد — وماذا يضير . انك معى .

قمر — نعم سألبث معك .

(يخرج قمر فى الحال)

شهرزاد — (كالمخاطبة لنفسها) المؤلف ؟ : أتراه أحد السحرة قد أرسل فى طلبه شهريار ؟

(قمر يعود وخلفه توفيق الحكيم يلتفت يمنة ويسرة منبهر البصر مما فى القصر من عجائب لم يسبق لعين مثله أن وقعت على مثلها)

شهرزاد — (تلتفت اليه وتتأمل زيه قليلاً وتأذن له فى الدنو منها ولكنه يقف مكانه جامداً) (تقدم يا هذا .)

توفيق — مولاتى ...

شهرزاد — ماذا بك ؟

توفيق — أأنا بين يدى شهرزاد ؟

قمر — نعم أنت فى حضرة الملكة العظيمة .

توفيق — (كالمخاطب لنفسه) نعم ، لا يمكن لهذا الجمال أن يكون لغيرها .

شهرزاد — بِمَ تهمس كمن به مس ؟

توفيق — مغفرة أيتها الملكة ، إنى . . .

شهرزاد — لماذا تنظر إلىَّ هكذا ؟ .

توفيق — هذا الجمال ...

شهرزاد — (لقمر) أرأيت يا قمر ! انك قد جئتنى آخر الليل بمُعْجَب مفتون .

قمر — (لتوفيق) ماذا جئت تصنع هنا أيها الرجل ؟

توفيق — (همساً) لست أدرى ... (يعود فيتأمل شهرزاد)

شهرزاد — أرجو منك ألا تطيل النظر إلىَّ هكذا .

توفيق — مولاتى ! لا أستطيع .

شهرزاد — أين الجلاد ؟

توفيق — خير لك أن تأمرى بى فتطاح رأسى من أن تطلبى إلىَّ ألا أعجب بك .

شهرزاد — أترانى حقاً جميلة ؟

توفيق — نعم .

شهرزاد — ان لى جسداً جميلاً ! أليس لى جسد جميل ؟

توفيق — ليس الجسد وحده .

شهرزاد — اقترب .

توفيق — كلاَّ .

شهرزاد — لماذا ؟

توفيق — (يشير الى الحوض) هذا الحوض ...

شهرزاد — أيخيفك هذا الحوض ؟

توفيق — أخشى أن تزل قدمى فأسقط وأنا لا أحسن السباحة ...

شهرزاد — انه قليل الغور

توفيق — لا شئ عندك قليل الغور .

شهرزاد — (تتفرس فيه) عجباً ! انك تتكلم كما يتكلم شهريار ! من أنت ؟

توفيق — خادمك توفيق الحكيم .

شهرزاد — أتعنى أنك صاحب توفيق أم أنك صاحب حكمة ؟

توفيق — لا هذا ولا ذاك ، ولكنه اسم من الأسماء .

شهرزاد — وما صناعتك ؟

توفيق — أؤلف القصص .

شهرزاد — مثلى ؟

توفيق — لم أبلغ شأوك . وليس لى ذكاؤك ولا خيالك .

شهرزاد — انك تسرف فى اطرائى وتبخس قدر نفسك .

توفيق — قدر نفسى ؟ وما أدراك به ؟ وهل عرفت لى قصصاً على الأقل أيتها الملكة ؟

شهرزاد — كلاَّ . ماذا صنعت من القصص ؟

توفيق — قصة « شهرزاد »

شهرزاد — (فى عجب) أنا ؟

توفيق — نعم أنت .

شهرزاد — متى صنعتها ؟

توفيق — ليس يعنى الزمن الذى صنعت فيه .

شهرزاد — أصنعتها فى الماضى ؟

توفيق — بل فى المستقبل .

شهرزاد — فهمت . هذا الزى العجيب ...

توفيق — نعم . انى أهبط اليك الساعة من المستقبل الذى أعيش فيه لألقاك فى الماضى الذى فيه الآن تعيشين كما يهبط الطائر من الشمال الى الجنوب فى غابة متسعة الأرجاء .

شهرزاد — يا للعجب ! كلامك هذا يذكرنى بشهريار .

توفيق — أترين هذا ؟

شهرزاد — لكنك أهدأ نفساً منه .

توفيق — نعم ، الآن .

شهرزاد — (تنظر اليه ملياً) انى أعجب كيف أن القدر لم يجمع بيننا قبل الآن ؟

توفيق — لقد جمع بيننا دائماً .

شهرزاد — أين ؟

توفيق — (يشير الى قلبه) هنا .

شهرزاد — (فى عجب تشير الى قلبه) هنا ؟

توفيق — نعم . ومن هنا خرجت أنت الى الوجود . فما أنت إلا صنع النار والنور الكائنين هنا (يشير الى قلبه)

شهرزاد — هذا جميل .

توفيق — أرأيت من أى مادة أنت مصنوعة يا مخلوقتى العزيزة !

قمر — (يتململ) من هذا الرجل ؟

توفيق — صه أيها الوزير . فكر فى شأنك أنت ، ودعنى فيما أنا فيه . فما جئت الليلة إلا من أجل شهرزاد .

شهرزاد — جئت من أجلى ؟

توفيق — نعم .

شهرزاد — وماذا تريد منى ؟

توفيق — أريد أن أعيش الى جانبك .

قمر — (فى غضب وهياج) أيها الرجل ! من أنت أيها الرجل؟

توفيق — أنا كائن أشقى منك حالاً .

شهرزاد — (باسمة لتوفيق) لماذا ؟

توفيق — لأنى أشعر ببرد الوحدة يكتنفنى فى تلك السماء ذات السحب .

شهرزاد — ويل للمبدعين !

توفيق — صدقت ، أجل يا شهرزاد لو لم يعش المبدع فى مخلوقاته لقتله برد الوحدة .

شهرزاد — تريد إذن أن تهبط الى الأرض .

توفيق — لقد قلتها يا شهرزاد . لا شئ غير الأرض . ؟

شهرزاد — أين شهريار يسمع منك ؟ وهو الذى هجر الأرض يريد السماء . !

توفيق — لا تخشى عليه من بأس . سوف يعود اليك .

شهرزاد — متى ؟

توفيق — يوم يعلم أن السماء فى الأرض .

شهرزاد — يا هذا . أريد منك شيئاً ...

توفيق — ماذا ؟

شهرزاد — أمنحك قبلة . !

توفيق — تمنحيننى قبلة ؟

شهرزاد — نعم .

توفيق — وهبتها قمرا .

قمر — (فى استنكار) مولاى !

توفيق — خذها أيها الأبله . من ذا يرفض قبلة من شهرزاد ؟

قمر — (يخرج سريعاً) ...

توفيق — هرب الأحمق .

شهرزاد — (تنظر الى توفيق ملياً) عرفتك أخيراً .

توفيق — (باسما) أعرفتنى ؟ من أنا ؟

شهرزاد — أأنت هو ؟ أم أنك تعيش فيه ؟

توفيق — من هو ؟

شهرزاد — شهريار !

توفيق — صه . لست أدرى ... لست أدرى ... هذا سؤال لا ينبغى أن يوضع . ولا ينبغى أن يلقى علىّ .

شهرزاد — اذن ارتفع . فما أنت إلا شبح من الأشباح .

توفيق — شبح من ؟

شهرزاد — شبح شهريار . !

توفيق — لا تقولى هذا . إنما هو الشبح وأنا الحقيقة .

شهرزاد — أمام الأبد هو الحقيقة التى ستبقى وهو خالقك وهو مخلدك ، وما أنت إلا خيال سوف تتبعه صاغراً على مرّ الأيام . وان ذكر اسمك على الدهر فانما يذكر خلف اسمه . انك تزعم الآن أنك صانعنا ومبدعنا أمام ذلك الزمن المحدود ، وإنما نحن فى الحقيقة صانعوك ومبدعوك فى الغد أمام الخلود ...

توفيق — ويل لى .

شهرزاد — ماذا بك ؟

توفيق — أأنا عندك شبح ؟ تلك هى السخرية الكبرى ! فى وحدتى ينخر فى نفسى الشك . فاذا هبطت بينكم ألتمس اليقين علمت أنى شبح لا حقيقة . وانى وليد صنعكم أنتم أمام الدهور .

شهرزاد — كل شىء يصنع كل شىء ...

توفيق — نعم .

شهرزاد — ليس هناك إلا حقيقة واحدة .

توفيق — ما هى ؟

شهرزاد — أننا جميعاً لسنا حقيقة .

[البقية فى أسفل الصفحة المقابلة]

٣ ـ من روائع عصر الأحياء

حياة بنفونوتو تشلليني مكتوبة بقلمه

مثل عال للترجمة الشخصية

للأستاذ محمد عبـــد الله عنان

زج بنفونوتو تشلليني إلى غيابة الحصن الرهيب (حصن سانت انجيلو) مرة أخرى، وهو كسير الساق، طريح الفراش وألقى فى تلك المرة إلى غرفة مظلمة ضيقة رطبة، تتمثل فيها روعة الأسر، ورهبة العدم؛ وشعر أن لهب حياته يخبو، فانكب على قراءة الكتاب المقدس استعداداً للقاء ربه؛ ولكنه بعد أن لبث أياماً فى قراءته، شعر أن قبساً جديداً يضىء حياته، وتولاه نوع من السكينة المعنوية وصفاء النفس؛ ويصف لنا تشلليني ذلك التطور النفسى الغريب الذى حقق له خلال الألم المبرح نوعاً من السعادة، وحوله من فتى مضطرم الأهواء والنزعات، إلى شبه قديس يتجرد بعواطفه نحو الملكوت الأعلى، لا يذكر شيئاً من ملاذ هذا العالم وحواسه؛ ويقص علينا فى عدة صحف شائقة حوادث حياته الهادئة فى ذلك الظلام الدامس، وكيف غدا عرضة للأحلام الروحية البديعة، ويبدو تشلليني فى هذا الوصف كاتباً بارعاً، فى بيانه كثير من القوة والسحر؛ والمحن تطلق البيان والشاعرية؛ أجل، وغدا تشلليني شاعراً أيضاً، يكتب فوق الصفحات البيضاء من «توراته» أبياتاً من الشعر الصوفى، ويشتغل بوضع قصيدته الكبيرة (الكابيتولو) فى وصف السجن ومديحه، ووصف ما عانى من ألم، وما آنس من سعادة نفسية

ثم توفى محافظ الحصن، صديقه القديم الذى كان يرعاه ويجتهد فى تخفيف محنته وخلفه أخوه فى منصبه. وكان البابا كلما خطر له أن يطلق تشلليني من أسره تدخل ولده السنيور بيرلويجى وحال دون قصده. وكان خصوم تشلليني يودون موته بأى الوسائل، وكان السم بالطبع أيسر وأنجع الوسائل التى تستعمل فى هذا العصر الفياض بالجريمة والغدر. وعلى ذلك عهد أحد رجال البطانة إلى أحد حراس السجن أن يضع شيئاً من مسحوق الماس فى طعام تشلليني، وعهد بسحق الماس واعداده إلى صائغ من أرزو؛ وقدم الطعام المسموم إلى تشلليني فأكله، ولكنه لاحظ فى النهاية ذرات تلمع فى أحد الصحون، فخفق قلبه، واعتقد بعد فحصها أنها ذرات الماس القاتلة. يقول: «فأيقنت عندئذ بأنى هالك، وامتزج الحزن والايمان فى قلبى حينما هرولت إلى الصلاة. ولبثت مدى ساعة أواجه الموت المحقق، وأضرع إلى الله، وأشكره على أن هيأ لى هذا الموت الهين؛ وشعرت برضى عميق، وباركت العالم والزمن اللذين عشت فيهما؛ والآن فانى أعود إلى أرض أفضل برعاية الله التى أيقنت أنى كسبتها».

ولكن أملاً غامضاً فى الحياة حمله على أن يتأمل الذرات اللامعة مرة أخرى، وأن يفحصها بواسطة مدية صغيرة، فانتهى بعد فحصها وسحقها إلى أنها لا يمكن أن تكون من الماس، وأنها مسحوق مادة لامعة أخرى لعلها لا تؤذى الحياة. والظاهر أن الصائغ الذى عهد إليه بسحق الماس قد طمع فيه واستبقاه لنفسه واستبدله بهذه المادة.. وعلى أى حال فقد نجا تشلليني من هذه المحاولة، واستمر أياماً يرفض الطعام الذى يحمل اليه مالم يذقه أمامه حارس السجن

وقضى ربك أخيراً أن تختتم المأساة المروعة وأن يطلق سراح البرىء. ذلك أن الكردينال دى فرارا مبعوث فرانسوا الأول ملك فرنسا قدم إلى رومة لمفاوضة البابا فى بعض الشئون، وانتهز هذه الفرصة فالتمس من قداسته أن يفرج عن تشلليني، وأن يسلمه إليه، منوهاً باهتمام ملك فرنسا بأمره، فاضطر بولس الثالث

توفيق — وأنا معكم.

شهرزاد — وأنت معنا لا فرق بينك وبيننا.

توفيق — (بعد لحظة) صدقت! ولا أمل لى مع ذلك فى أن أعيش الى جانبك.

شهرزاد — اليوم كلا.

توفيق — ومتى اذن؟

شهرزاد — فى الغد، يوم تصبح من مادتنا، لو أن لنا اليوم مادة.

توفيق — فهمت. وداعاً يا شهرزاد.

شهرزاد — الى الملتقى!

توفيق الحكيم

أن يجيب ملتمسه ، وأوفد رسوله فى الحال الى الحصن مع كبيرين من حاشية الكردينال ، وأفرج عن تشلليني ، وأخذ الى الكردينال دى فرارا ، فاستقبله بترحاب ، وأنزله بقصره . فلبث به مدى حين ينفض عنه عثار السجن ، ويستجمع قواه الذاهبة ، ويستعيد مواهبه التى كادت أن تخبو . ولما انتعشت نفسه ، عاد فانكب على عمله المحبوب ، وأخذ يشتغل بطائفة من الأوانى والتحف التى عهد اليه الكردينال دى فرارا بصنعها . ولما أتم الكردينال مهمته فى رومة اعتزم السفر إلى فرنسا ، فسار تشلليني فى ركبه مع فتاه اسكانيو وزميل له يدعى باجولو ، وسبقه الكردينال إلى فرنسا ، وتخلف هو حيناً فى فلورنس وفيرارا ، ثم كتب اليه الكردينال ليوافيه إلى باريس ، فسار اليها مع عامليه ، ولم يكن راضياً عن معاملة الكردينال له من الوجهة المادية ، ولكنه لم يستطع التخلف قياماً بحق الوفاء والعرفان لأنه هو الذى أنقذه من إسار السجن . ووصل الى باريس ، ثم سار الى فونتنبلو حيث كان يقيم الملك وبلاطه ، وهنالك لقى الكردينال ، فأكرمه وأنزله منزلاً حسناً ، ثم استقبله الملك فرانسوا الأول بترحاب وأغدق عليه عطفه ، وقدم اليه التحف والحلى التى صنعها لحسابه ، فأعجب بجمالها ودقتها وهنأه على براعته ، وعهد اليه بصنع تحف أخرى ، وأقطعه منزلاً للعمل والأقامة ، وأجرى عليه راتباً حسناً . وهنا يفيض تشلليني كعادته فى وصف التحف التى عهد اليه ملك فرنسا بصنعها والزخارف التى وضع نماذجها لبعض أبواب قصر فونتنبلو ، ثم يصف لنا حياته اليومية فى عاصمة فرنسا . وكانت كالمعتاد حياة عاصفة مليئة بالشجار والمنازعات ، وكان قد اتخذ له صاحبة جديدة ، هى فتاة فرنسية تدعى كاترينا ، تشتغل لديه كنموذج فنى ، فكانت هذه العلاقة مثاراً لعدة منافسات وفضائح غرامية يصفها لنا تشلليني بصراحته المعروفة . ويقص علينا كيف فاجأ ذات يوم فتاه باجولو متلبساً بالخيانة مع كاترينا ، وكيف تسممت بينهما العلائق من أجل ذلك ، وطرد الفتاة الخائنة وصاحبها ، ثم انتهى بأن رتب لهما انتقاماً جهنمياً هو أنه عقد زواجهما بالاكراه ، وسيفه معلق على رأسيهما ثم عاد بعد ذلك فاستخدم كاترينا نموذجاً وخليلة لكى يذل بذلك أنف عامله السابق باجولو ، وكيف أنه استخدم بعد ذلك فتاة أخرى ، وأولدها طفلة ثم صرفها مع طفلتها بشىء من المال ، ولم يرهما بعد ذلك قط

ولبث تشلليني فى خدمة ملك فرنسا حيناً من الدهر ، ولكنه لم يحظ بعطف الدوقة دتامب صاحبة الملك ، وكانت تستأثر يومئذ بالنفوذ فى البلاط ، وأنفت نفسه من أن يترضاها بوسائل لاتتفق مع كبريائه ، فلبثت من جانبها تدس له لدى الملك وتخلق الصعاب فى وجهه . ولكن الملك أعرض عن تحريضها حيناً ، وعهد الى تشلليني بأعمال فنية كبيرة منها تماثيل فضية عديدة ، وأحواض زهر ، وباب برنزى وغيرها ، وأدى الفنان هذه الأعمال كلها ببراعته الفائقة ، وأعجب بها الملك أيما اعجاب . وأخيراً شعر تشلليني بأن عطف الملك قد فتر ، وعاف هذه الحياة المضطربة الفياضة بالأحقاد والدس ، فاستأذن فى السفر ، وذهب الى الكردينال دى فرارا يلتمس اليه العون فى العودة الى وطنه ، فاجاب ملتمسه ، وغادر فرنسا غير آسف على فراقها ، ووصل الى إيطاليا بعد رحلة شاقة ، وقصد الى مدينة فلورنس مسقط رأسه ، وكان ذلك فى صيف سنة ١٤٤٥ . وبعد أن أقام أياماً إلى جانب أسرته ، سعى إلى لقاء الدوق كوزيمو دى مديتشى أمير فلورنس ، فاستقبله بترحاب وعهد اليه بصنع تمثال « لبرسيوس » وتمثال نصفى له ، وقضى حيناً فى خدمته ، ولكن سوء تفاهم وقع بينه وبين الدوقة زوج الأمير ، حمله على مغادرة فلورنس ، وعندئذ سافر الى البندقية وأقام بها حيناً ثم سافر الى رومة وزار هنالك ميشيل أنجيلو المهندس والفنان الخالد ، وكان يومئذ يعني ببناء كنيسة القديس بطرس وزخرفتها ، ليفاوضه فى بعض المسائل الفنية . ثم عاد الى فلورنس ، بعد أن عاد التفاهم بينه وبين الدوق ، واشترى هنالك ضيعة صغيرة بما اجتمع له من المال ، واستقر هنالك منكباً على تحفه وتماثيله

***

وهنا ينتهى ما كتبه بنفونوتو تشلليني عن حياته . وقد كتب تشلليني هذه الصحف بين سنتى ١٥٥٨ و ١٥٦٦ ، ولكنه يقف فيها عند سنة ١٥٦٢ . وكانت أوصاب الشيخوخة قد دهمته يومئذ ، وذهبت بذلك العزم المضطرم الذى كان يلتهب أبدا ؛ وملك تشلليني سحر القلم فكتب فى ذلك الحين أيضاً قصته « تراتاتى » يكرر فيها القصة القديمة المعروفة بذلك الاسم . وليس فى حياته ما يستحق التدوين يومئذ غير زواجه سنة ١٥٦٥ ، وهو فى الخامسة والستين من خادمته بيرا دى سلفادوزى ، تزوجها عرفاناً

بما قدمته فى خدمته أثناء مرضه من الغيرة والاخلاص ، ورزق منها بولدين هما ابنه أندريا سيمونى ، وابنتــه مادلينا ، وتبنى أيضاً أبناءها من زوجها الأول . وتوفى الفنان الكبير فى ١٣ فبراير سنة ١٥٧١ ، بمنزله فى فلورنس ، ودفن باحتفال فخم ، وخبت تلك الحياة التى لبثت سبعين عاماً تملأ ما حولها حركة ونشاطاً واضطراما .

* * *

هذه خلاصة لذلك المجلد الضخم الذى تركه لنا بنفونوتو تشلليني عن حياته الغريبة الحافلة . وإذا كان تشلليني قد عُدّ من أقطاب الفنانين فى عصر الأحياء ، فانه يرتفع بأثره الى صف أقطاب كتاب هذا العصر . ولم يكن تشلليني كاتباً كما قدمنا ، ولم تهيئه تربيته الساذجة ، ولا حياته الشريدة المضطربة لمعالجة الكتابة ؛ ولكن البيان هبة الطبيعة ؛ وقد كان تشلليني ابن الطبيعة ، وهبته كثيراً من خلالها الباهرة ؛ فكان القلم فى يده يدون به حوادث حياته ، كالريشة يرسم بها نماذج تحفه . وليست روعة ترجمة تشلليني فى هذا البيان القوى الساذج الساحر فقط ، ولكنه أيضاً فى تلك الصراحة الخشنة التى يحدثنا بها تشلليني ، وفى تلك البساطة الرائعة التى يكشف لنا بها عن دخائل نفسه . ويقول لنا تشلليني فى الخطاب الذى يوجهه الى صديقه بنديتو ڤارشى بشأن ترجمته أنه لم يكتب إلا ما وعته الذاكرة من حقائق حياته . يقول : « والواقع أننى لم أكتب سوى الصدق ، وقد أغضيت عن كثير من الحوادث العجيبة التى كان غيرى يعطيها أهمية خاصة . ذلك أن لدى شئوناً عظيمة كثيرة أقصها ، وقد تركت كثيراً مما هو أقل أهمية منها لكى لا يفيض بى القول فأخرج مجلداً ضخماً جداً » . ولم يتنه الينا قبل تشلليني أو بعده أثر كأثره يمتاز بتلك الروعة والصراحة والحقائق المدهشة ، وإن كانت هنالك ثمة تراجم شخصية عديدة غربية وشرقية ترتفع الى ذروة البيان والطرافة الأدبية . وقد أشرنا فيما تقدم الى ما بين ترجمة تشلليني و « اعترافات » جان جاك روسو من وجوه الشبه والتباين ، وأخصها أن جمال ترجمة تشلليني مستمد بالأخص من روحه التى تكاد تمثل فى كل صفحة من صفحاته ؛ أما جمال الاعترافات ، فهو مستمد على الأغلب من السحر الذى يسبغه بيان روسو وقلمه على حوادث حياته . وفى رأينا أن ترجمة تشلليني تتفوق من ناحية الفن والطرافة والروعة على اعترافات روسو ؛ وعلى أى أثر غربى آخر من نوعها .

ولدينا فى العربية أثر هام من نوع التراجم الشخصية القوية . ذلك هو ترجمة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون لنفسه ، وهى المشهورة « بالتعريف » . فقد دوّن ابن خلدون حوادث حياته فى مجلد خاص فى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ، أعنى قبل أن يكتب تشلليني ترجمتــه بقرن ونصف ؛ و « التعريف » ترجمة شخصية ، ولكن الحياة السياسـية العاصفة التى خاض ابن خلدون غمارها والتى يقصها علينا فى هذا السفر ، تسبغ على « التعريف » لون التاريخ العام ؛ ذلك أن ابن خلدون ضنين علينا بمواطن الافضاء الشخصى التى تملأ ترجمة تشلليني ، وهو يؤثر دائماً أن يدون من حوادث حياته ما يرتفع الى أهميـة الحياة العامة وحوادث التاريخ ؛ بيد أنه يحـدثنا أيضاً عن نفسه وعن خلاله ، ولا يتردد فى الافضاء بكثير مما لا يحسن الافضاء به ، لا عن حياته الداخلية ولكن عن حياته العامة . وفى تعريف ابن خلدون ، كما فى ترجمة تشلليني عنصر القصة الشائقة لحوادث حياة حقيقية . فان فيلسوفنا يصف لنا فى تعريفه كيف يجوز من قصر الى قصر ، ويتعرض لمخاطر النقمة والاعتقال والمطاردة ، ويسير فى ركب الجند ، ويمثل الى جانب أميره فى المعارك الحربية ، ويقوم بقضاء المهام الخطرة فى أعماق الهضاب والصحارى . ونراه فى دمشق فى السبعين من عمره يجوز مخاطر جديدة ، وينزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل ليقصد الى معسكر الفاتح التترى تيمورلنك ، وغير ذلك من الحوادث الغريبة الشائقة . والواقع أن هنالك شبهاً عظيما بين ترجمة ابن خلدون وترجمة تشلليني مع اختلافهما فى النوع ، فكلتاهما تفيض بمواطن الجرأة والمخاطرة ومواطن الافضاء والصراحة . واذا كانت ترجمة الفنان الايطالى تعتبر فى الأدب الغربى نموذجاً بديعاً للترجمة الشخصية ، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق ، فان « تعريف » ابن خلدون يتبوأ مثل هذه المكانة فى أدبنا العربى .

ولأثر تشلليني فوق ذلك أهمية تاريخية ، فهو يصور لنا كثيراً من ألوان الحياة الاجتماعية فى عصر الاحياء ، وهو عصر تطور

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

٢ـ الامتيازات الأجنبية والضرائب

للأستاذ زكى دياب المحامى

يرى بعض الشراح أن اعفاء الاجانب من الضرائب التى تفرضها الحكومة المصرية قائم على اتفاقات دولية ، وهم فى زعمهم خاطئون . وآية ذلك أن الاتفاقات الخاصة بالامتيازات كانت ترى الى اعفاء الأجانب من الضرائب الكيدية ، وخصوصاً ضريبة الرأس (Capitation) وهى ماتقضى قواعد الشريعة المطبقة فى الدولة العلية حينذاك بأن تجبى من كل أجنبى يقيم أكثر من سنة فى بلد اسلامى . وكانت تعتبرها الشريعة أيضاً نوعاً من الجزية ، فضلاً عن أن فى دفعها مظهراً للاستبداد والتعسف المالى . هذا ويلاحظ أنه وإن كانت هذه الاتفاقات تحمى الأجانب من حملة المكايد إلا أنها لم تعفهم اعفاء مطلقاً من الضرائب بكافة أنواعها . وقد كان الأجنبى منظوراً اليه بعين الكراهية لنزعته الدينية ، وبدراسة نصوص الاتفاقات الفرنسية والأنجليزية يظهر ذلك جلياً . على أنه وإن كانت الاتفاقات الفرنسية تعفى الأجانب من فرائض صغيرة فيها شيء من التعسف ، فان ذلك الوضع لايمنع من فرض ضرائب معروفة لدى الدول المتمدينة ، فالهوة سحيقة بين الجزية القديمة التى كانت تفرض من جانب الظافر على المهزوم وبين الضرائب التى تفرض فى الدول الحديثة .

وترى الأوساط الأجنبية هنا وجوب الأعفاء من كل تلك الضرائب ، ضريبة الأراضى العقارية والرسوم الجمركية ، ويرد على هذا بأن العامل الوحيد الذى حدا بالدول الى طلب هذا الامتياز والحرص عليه هو وضع الأجانب فى مأمن من تيار الضرائب الكيدية التى كان يفرضها الحكام فى ذلك الوقت بدليل أن نص الاتفاقات لايتضمن اعفاء عاماً للأجانب ، فالدول فى الواقع كانت تقصد حماية رعاياها من حيث طريقة جباية الضريبة ولكنها لاتعارض فى فرضها . ومادامت قد ذهبت العلة فلا داعى لبقاء المعلول . فدوافع الكيد معدومة .

ولاغرو فمبدأ المساواة فى تحمل الضرائب قد حبذته لجنة التحقيق فى بيانها سنة ١٨٧٨ . وهى مؤلفة من أجانب عينوا بعد مفاوضات مع الدول . أليست هذه حجة قوية ؟ وأليست هذه شهادة شهود من أهلهم ؟

وفى مؤتمر لندن سنة ١٨٨٥ أكدت الدول بصراحة رغبتها فى المساواة ، ورأت من العدل اخضاع الرعايا الأجانب القاطنين بمصر لنفس الضرائب التى يخضع لها المصريون . . وقبلت (الدول) تنفيذ ديكريتو سنة ١٨٨٤ الخاص بالضرائب على أراضى البناء فسرى على الأجانب والمصريين كما سبق القول . وفى قرارات ذلك المؤتمر الخطير حجة لنا دامغة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

وفى مستهل القرن العشرين استنكرت الشخصيات الكبيرة المعروفة فى عالم السياسة نظام الامتيازات فى مصر فصرح اللورد ملنر فى كتابه (England in Egypt) أو (انجلترا فى مصر) بأن إعفاء الأجانب من الضرائب فى القطر المصرى من المنح التى خلقتها الامتيازات بدون وجه حق ، وفى عبارته التالية مبلغ ذووه عن رأيه الحكيم : —

« L'exemption des impots pour les étrangers est le plus insolite des privileges accordés sons le régime des Capitulations. »

وأعرب لورد كرومر بأنه لا يتردد فى القول بأن النظام المعروف بالامتيازات فى مصر لايتفق اطلاقا وحالة مصر الحاضرة :

عظيم فى تاريخ الانسانية ؛ وفيه وصف شائق لكثير من أحوال الباباوات وبذخهم وقصورهم ، ووصف لأخلاق الأحبار ودسائسهم واستغلالهم لطبقات المجتمع الأخرى ، ووصف لأحوال الجمهوريات الايطالية فى ذلك العصر وأمرائها وسادتها ؛ والخلاصة أنه يلقى أكبر الضياء على تاريخ عصر من أهم عصور إيطاليا ، وعصر يعتبر بحق فجر التاريخ الحديث . وفى رأينا أن كتاب تشلليني من أجدر الآثار الغربية وأحقها بالترجمة العربية ؛ وقد ترجم فعلاً من الايطالية الى جميع اللغات الأوربية ؛ فعسى أن يتقدم بعض شبابنا المثقف فيتحفنا بترجمة عربية بديعة لذلك الأثر البديع ؟

« تم البحث »

محمد عبد الله عنان
المحامى

« Je n' hésite pas à dire que le systéme connu sous le nom générique de Capitulations, tel qu'il est partiqué aujourd'-oui en Egypte, est tout a fait incompatible avec la siluation actuelle de l' Egypte.

وبعد ، أليس من الجور فى أخص صوره أن مصر وقد خطت فى سبيل المدنية الصحيحة والتقدم خطوات لم تنكرها عليها الدول ؟ أليس من الجور أن مصر هذه إن أرادات فرض ضريبة جديدة تستعين بها على ما تقوم به من أعمال كبار أن تلجأ الى اثنتى عشرة دولة تلتمس موافقتها ؟ إنه مظهر من مظاهر قصور السيادة ، وجرح لايندمل فى صميم العزة القومية .

ومن ذلك ما حدث خلال المدة التى أعلنت فيها الأحكام العرفية على البلاد ، إذ جرت السلطة العسكرية على إصدار أوامر تسرى على الوطنيين والأجانب سواء بسواء ، وكان بين هذه الأوامر ما يتعلق بفروض مالية قبل الأجانب ، والوطنيون يحملونها . فلما ألغيت الأحكام العرفية أثار إلغاؤها دفائن العصيان المدنى لأوامر الحكومة المصرية ، فامتنع أكثر الأجانب عن دفع ضريبة الخفر ، وأشار بذلك بعض القناصل وعللوا الامتناع بأن دولهم لم توافق عليها . وما كانوا ليقولوا كلمة وقت أن فرضتها السلطة العسكرية .

ومجمل القول أن نظام الضرائب فى مصر جد متناقض ، وعلة ذلك نظام الامتيازات العتيق والتوسع الضار الذى خلقه العرف السائد الآن والقواعد القديمة البالية ، والأوضاع الكيدية المهينة التى صورتها الامتيازات . وهل ترى من العدالة أن الأراضى الزراعية وجلها فى يد المصريين تثقل بالضرائب حتى لتكاد تستغرق الايراد ، أما التجارة الواسعة وهى فى يد الأجانب ، والصناعة المتازة المكسبة ، والمصارف الكبرى وكل ذلك فى يدهم ، فمعفى من الضرائب .

***

وأخيراً فلا تردد فى إبراز الحقيقة نيرة فى سطور معدودة. ذلك أن قيام الأجانب متمسكين فى وجه مصر بامتيازاتهم كلما حاولت الحكومة المصرية السعى لالغائها أو تخفيف وطأتها سيكون له من الأثر الخطير مايقرب أجل الامتيازات ، لأن الحال على ماهى عليه لن تدوم طويلاً ولا بد لمبادىء العدالة أن تسود يوماً ما ؟

« تم البحث » زكى دياب

الذكرى

للأديب حسين شوقى

مضى عام كامل منذ أن رافق (س) رفاتها الى المقر الأخير ، فرأى أن يزور القبر بهذه المناسبة وأن يضع على الضريح طاقة من البنفسج ، لأنها كانت تحب هذا الزهر الذى طالما لاحت زرقته فى انسانىْ عينيها ، ثم قصد الى محل الشاى حيث اعتاد مقابلتها لدى خروجها من عملها ، وجلس الى المائدة التى كانت تجلس اليها وهى تنتظره فى شغف وسرور . . ثم أقبل الخادم وكان هو بعينه الذى خدمهما فى العام الماضى ، فحياه (س) كالعادة فى لطف ودعة ، ثم طلب منه الطلب نفسه : قدحيْن من الشاى ، فدهش الخادم لأن الرجل لم يكن معه أحد ، ثم أخرج (س) مجموعة من الرسائل التى علتها صفرة القدم ثم أخذ يتلوها واحدة واحدة للمرة المتممة للمائة ، ولكن كان يجد فيها دائماً لذة جديدة كأنها لحن من ألحان ديبوسى الشجية التى لاتملها النفس أبداً . .

هاهى ذى ذكريات الماضى ماثلة أمامه : مقابلاته الأولى مع محبوبته ، رحلاتهما ، نزهاتهما ، نوادرهما ، جلساتهما فى هذا المكان نفسه ، تناولها الشاى فى هذه الساعة نفسها ، كل ذلك كان يحس وجوده ، حتى المحبوبة خيل اليه أنها بجواره . . كان يشعر بلذة عظيمة من أجل هذا ، لقد أتى عملاً يعد من معجزات الرسل اذ تحدى الفناء وعلا سلطانه فوق سلطان الدهر ، ولو الى زمن قصير !

مضت ساعة ، فساعة ولم يحضر أحد . . وكان الخادم يرقبه فظن أن الرجل ضحية خيبة أمل من عشيقة . . ولكن على حين فجأة تذكر قصة هذا الرجل ففهم الحقيقة المؤلمة لما كان يبدو على (س) من مظاهر اليأس المتجلد ، فخجل من نفسه وأشفق على الرجل شفقة عظيمة ، كما أعجب من تحديه للموت ومن وفائه لمحبوبته المتوفاة ، ثم اقترب منه ومد اليه يده معتذراً لسوء ظنه قائلا: آسف جداً ياسيدى لقد شككت فى وفائك ، سامحنى ! فصافحه (س) فى حزن وألم مردداً : لابأس لابأس . . وكأنه أفاق من حلمه الجميل فعاد الى عالم الألم والشقاء ، يئن تحت سلطان الزمن .

حسين شوقى

رأى عربي مسيحي في محمد

محمـــــد والعرب

قصيدة في ذكرى مولد الرسول

بقـــلم وصفي قرنفلي

توطئة

عقيدتي الشخصية ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول كبقية الرسل ، وكما جاز للمسيحيين أن يجمعوا للمسيح (ص) صفتي الألوهية والانسانية الممتازتين ، فقد يجوز لي أن أرى في سيد قريش نبياً دينياً ومنقذاً قومياً في آن واحد . فأنا أحترمه (ص) كنبي جاءنا بالهدى والرحمة ، وأنضوي الى لوائه كمنقذ لهذا الشرق من إسار الفرس والرومان ، وأنا أرى في الدين الاسلامي قوة للشرق في جهاده القومي يجب استغلالها ، واذا لم يكن للقرآن من يدٍ إلا صيانة لغتنا — واللغة أجلّ مظاهر القومية — لكفاه ذلك فضيلة تحمد ، ويداً تشكر .

فاعترافاً بفضل محمد وقرآنه على العرب والعربية كتبت ما كتبت ، وأكتب من طوال الفصول في جرائد الفتح في (مصر) والاعتصام في (حلب) والرابطة في (دمشق) وسواها من الصحف الاسلامية ، عدا رسائلي وقصائدي القومية في بقية الصحف العربية

وفي سبيل محمد وقرآنه لقيتُ وألقى ما أكابد من عنت الجهل وسخر رجاله ، نُخبيتُ « الرياء » وساماً ، ورُميت بالكفر والضلالة ، وقيل إنني أداري الأكثرية فأصانع المسلمين ، وأني حزب القوة أنى كانت القوة ، وكان أشد أولئك الغاضبين عنتاً وغيظاً ، كهل مسيحي يدعى « سمعان » قرأ لي مقالاً في (الجزيرة) فهزّه الغضب حتى لقد همّ بي لو استطاعني ، ولكني هزأتُ به وترفعت عن خصامه ، فالى « سمعان » هذا ومن أخذ أخذه صرفتُ وجه الخطاب في مستهل القصيدة .

إنني مسيحي كما يحب « سمعان » أن أكون ، ولكني لا أرى في مسيحيتي ما يمنعني عن الاعتراف بهدى محمد ويده على الانسانية والعرب !

ولعل الضلالة كل الضلالة أن نحصر الفضيلة والهدى في دين من الأديان ، فلكل دين ميزاته ، ولكل دين فضائله ، ومرجع كل دين الى الله (ولله ما في السموات وما في الأرض ، والى الله تُرجع الأمور)

القصيدة

قد يقولون « شاعر نصراني ... يُرسل الحبَّ في كذاب البيانِ »
« يتغنى هوى الرسولِ ويهذي ... بانبثاق الهدى من القرآن »
« ينتحي الجبهة القوية يحدو ... ها رياءً ، والشعر (لاوجداني) »
« قسماً بالمسيح ، لو قام للشيطا ... ن حزب ، أشاد بالشيطان . »
كذبوا والرسولِ ، لم يجرِ يوماً ... ـ بخلاف الذي أكنّ ـ لساني
ما تراءيت بالهوى ، بل سقاني ... طائفُ الحبّ والهوى ما سقاني
أوَعارٌ على فتى يعربيٍّ ... أن تغنّى بالسيد العدناني ؟
أوَليس الرسول منقذَ هذا (م) ... الشرق من ظلمة الهوى والهوان ؟
صاح بالشرق واستثار بنيه ... فتنادوا بالفرس والرومان
ومشوا للحياة تحت رايته السمحاءِ ... صفّاً موطّد الأركان
وبنوا مجدنا المؤثّل صرحاً ... من نِثار العروش والتيجان
وأتوا قمة الزمان فكانوا ... سادة الأرض في شباب الزمان
أفكُنّا لولا الرسول سوى العبدان ؟ ... بئست معيشة العُبدان !
أوليس الوفاء أن تُخلص المنقذ ... حباً إن كنت ذا وجدان ؟
فالتحيات والسلام أبا القاسم ... تُهدى اليك في كل آن

* * *

قلْ « لسمعان » إنما في عروقي ... عربي ، وأن ما في لساني
أتغنّى بالحق ، والحق يا صاح ... لا مسلم ولا نصراني
إنما الشاعر الذي أنا منه ... فوق ذاك الارجاف والبهتان
قد تعالى عن الرياء بريئاً ... من هوى الشيخ أو هوى المطران
كلُّ هذي الاديان ـ لو عقل النا ... س ـ سبيل هادٍ الى الرحمن
أخذته الغاياتُ فانشعب السير ... وضلت قوافل الركبان
فاذا الناس في مريج من الأمر ... حيارى مشلولة الأذهان
يترامون بالكبائر والآثام ... ويمضون طيّبة الأضغان[1]
أيها الناس ! ما أتى الرسل للتفريق ... لكن لوحدة الانسان
كلنا مسلمون لله ، ففتام ... الترامي بالكفر والايمان ؟
كلنا صائرون لله يوماً ... « يوم تنشق وردة كالدهان »[2]
أتدينون بعضكم ؟ مَن حباكم ... أيها الناس سلطة الديان ؟
فاتقوا الله ! واتركوا الأمر لله ، ... وخلّوا ضلالة الكهّان
أم تراكم علمتم الغيب فأصدر ... تمُ إذ أصدرتمُ عن عيان ؟

[البقية في أسفل الصفحة التالية]

(١) الطية القصد والسبل ، والمعنى أننا بتنا يكفر بعضنا بعضاً ويخطئ بعضنا بعضاً ، ولو صدقنا جميعاً لكنا جميعاً من الكافرين !

(٢) إشارة الى قوله تعالى في سورة الرحمن : « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .

لماذا أخفقت جمعية الأمم
فى نشر السلام فى العالم ؟
للكاتب الانجليزى الشهير H. G. Wells.

« ولز » من أعظم كتاب العالم اليوم ، أصالة رأى وقوة بيان ؛ يزيد كتاباته روعة نزعته الانسانيــة الصادقة التى تتجلى فى كل ما يكتب . لايشاطره مكانته الرفيعة فى عالم الأدب الغربى من كتاب اللغة الانجليزية سوى « برناردشو » الكاتب الارلندى الشهير بنقده اللاذع . غير أنه يختلف عن « شو » فى أنه لا يقتصر على هدم الأنظمة الاجتماعية التى يتراءى له فسادها ، وإنما يكلف نفسه عناء خلق أنظمة جديدة تخلفها . فهو يهدم ليبنى ، وينتقد ليصلح .

من أحدث ما كتب « ولز » ومن أروع ما أنتج ، كتابه « شكل الأشياء القادمة » الذى بحث فيه ما يكون عليه العالم فى سنة ٢١١٦ ؛ فقد تصور شخصاً يعيش فى هذا التاريخ ، أخذ يدرس تطورات العالم الاجتماعية منذ سنة ١٩١٣ ، حيث انتهى ذلك التطور بحكومة عالية يعيش فيها كل فرد سعيداً ، لا استعباد فيها ولا استبداد ، ولا احتكار ولا منافسة .

وليُلمّ قراء الرسالة الذين لم تصل أيديهم الى هذا الكتاب ببعض ما فيه ، ترجمت فصلاً منه بالعنوان المذكور آنفاً ترجمة حرة مختصرة :

بحث فى الفصل السابق لهذا الفصل معاهدة فرسايل بحثاً مستفيضا وانتقدها انتقاداً مراً ؛ ثم أخذ فى هذا الفصل يشرح أسباب فشل جمعية الأمم كما يأتى :

« قبل أن نضرب صفحاً عن ذكر « ويلسون » ، ذلك الرجل الخيالى ، يجدر بنا أن نلفت الأنظار الى العوامل التى أدت الى فشله .

لم تكن شخصيته مكتملة للميزات الضرورية لنجاح الهدف الذى كان يرمى اليه . ولكن هذا النقص يجب ألا يجعلنا نتناسى استحالة تحقق مطمحه فى ذلك الوقت .

فأنانيته الضيقة ، والروح الانتقاميــة التى عوملت بها دول أوربا الوسطى وما الى ذلك ، جعلت من الخطر مجابهة العالم غير المستعد آنئذ بجمعية أمم .

فلم يكن فى ذلك الوقت استعداد فكرى كاف لقبول نظام عالمى ؛ و « الحكومة العالمية » أو الحكومة الحديثة الحاضرة كانت مجرد فكرة غامضة لم تبحث جيداً . فلا ريب إذن أن ويلسون تسرع فى خلقه جمعية الأمم ، إذ كان لزاماً أن ينتشر علم النفس الاجتماعى ، وأن يطبق قبل القضاء على فوضى الحكومات الملكية واستبدالها بسلطة مركزية .

غير أن ويلسون الذى لم يسبر غور الواجب الذى ألقى على عاتقه ، ولم يحط بما يكتنفه من عقبات ؛ رأى من غير روية ولا تبصر ، انه من السهل عليه توحيد البشر . فقد حاول أن يرتق نظام ذلك الزمن البالى ، وأن يجيزه كنظام جديد .

لم يحلم بتهذيب نظام النقد ، ولم يفكر بالحاجة الى انتشار النظام الاشتراكى فى العالم ، وانقلاب النظم التربيوية انقلاباً شاملاً ، قبل أن يكون فى الامكان استقرار السلام فى العالم .

ولكن على الرغم من كل نقائصه يظهر أنه كان أبعد رجالات زمنه نظراً .

فجمعية الأمم هذه غير الناجحة ، والعديمة الأثر ، لم تساعد على توطيد السلام الدولى ، وإنما على العكس من ذلك كانت حجر عثرة فى سبيله ؛ إذ منعت الناس أن يفكروا تفكيراً حراً فى هذا الموضوع .

ومن المؤسسات التى وجدت لمساعدة جمعية الأمم وعرقلة مساعى ناقديها « جمعيـــة الأمم البريطانية » فكانوا يقولون بأن

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

فقذفتم فى النار زيداً وبوّأ ... تم عميراً مقصورة فى الجنان
جلّ سبحانه عن الشرك فى الرأ ... ى وعلم المصير والسلطان !

* * *

منقذ الشرق ! قد أتيناك نشكو ... ضيعة الحق وانخذال الأمانى
فاحى فينا ميّت العزائم وابعث ... نائرات الهدى ودُرس المبانى
قد أضعنا ذاك التراث وضعنا ... فى شعاب الحياة والوديان

* * *

منقذ الشرق ! أنت لم تنقذ المسـ ... لم دون المواطن النصرانى
فجزاء الاحسان أن ينهض الشر ... ق جميعاً بواجب المهرجان

حمص (سورية) وصفى قرنفلى

« وجود جمعية الأمم خير من عدمه » . وقد فاتهم أن البدء الخاطئ أسوأ من عدمه .

فى العشر سنين التى تلت الحرب العالمية لم تكن أفكار مجددة فى السياسة العالمية يؤبه لها ، ولم يرجع البشر الى بحث توحيد العالم ، إلا بعد أن ثبت لهم ثبوتاً لا شك فيه عدم صلاحية جمعية الأمم للغرض الذى كونت من أجله .

ظلت حركة « الحكومة العالمية » فى الاثنتى عشرة سنة التى تلت تلوح وتختفى . وكان من الضرورى أن تتوحد جهود محبى السلام والشيوعيين والاشتراكيين ، وكل من سار على نهجهم من الذين حاولوا حل المعضلات الاجتماعية ، وكانوا لا يزالون يقضون أوقاتهم فى مناضلة بعضهم وفى التراشق بالتهم .

وعلى كل فقد انقضى منتصف القرن العشرين قبل أن يتسع نطاق الدعاية فى العالم « للحكومة الحديثة » .

نابلس عبد القادر صالح

١ - كتاب نهج البلاغة

بقلم محمد محمد العزازى

ذلك الكتاب المنسوب إلى فارس الفصاحة وصيقل البلاغة وإمام الخطابة ، والضارب فى ميدان البيان بما لم يلحقه فيه لاحق ، ولا وصل إليه سابق . أمير المؤمنين على بن أبى طالب . كتاب نابه الشأن ، رفيع القدر ، بليغ الموعظة ، صادق الحكمة ، قد توفرت عليه سنين طوالاً أقرأ مابين دفتيه مرة وأخرى وثالثة حتى بدت لى فيه آراء أردت بها تحقيق أمره . والكشف عن سره . مستنداً فى بحثى الى ماهدتنى إليه الفكرة وطول المراس ..

وجل الذى قيل فى الكتاب كلمات مجملة . لا تشفى غليلاً ولا تقوم دليلاً ، فالشيعة على أن الكتاب بجملته وتفصيله لأمير المؤمنين على ، والمنصفون من النقدة والنظار على أن فيه ماهو مدخول منحول بدعوى أنه يتعرض لبعض الصحابة بالطعن والتجريح . .

وهناك من يدعى أن الذى لعلى من القلة بحيث لا يصح أن ينسب الكتاب إليه . وعلى كل فهذه كلمات - كما قلنا - مجملة لا تشبع الباحث . ولا توقف الناظر عند حد أو تلزمه رأياً .

وهذا ما يدعونا إلى بحث المسألة على ضوء العلم والأدب والحقيقة والتاريخ . والكتاب فى جملته عالى الأسلوب فخم العبارة صقيل الديباجة ، لطيف الروح يتحدر إلى النفس بسهولة . والذى يدور عليه الكلام فى الكتاب كما يقول الرضى « أقطاب ثلاثة أولها الخطب والأوامر ، وثانيها الكتب والرسائل ، وثالثها الحكم والمواعظ » وهذا تقسيم حسن ، والمعقول ألا يخرج كلام أمير المؤمنين عن هذا . . فأمير المؤمنين أحد رجالات الاسلام غير مدافع . وله فى الفصاحة والشجاعة والفضل والنبل يد طولى . بايع أبا بكر نزولاً على حكم الأجماع . ورضى بعمر نزولاً على اختيار أبى بكر ، وأخطأته الشورى بعد ابن الخطاب ، ثم انتهت اليه بعد عثمان . فكان أمير المؤمنين أربع سنين وتسعة أشهر أخذ يصلح فيها ما يراه فاسداً ويجمع كلمة المسلمين ويلم شعثهم . وقد نقض بعض الصحابة بيعته فكانت حروب . انتهى بعدها الحكم إلى معاوية بعد تنازل الحسن . فكل هذا يدعو أمير المؤمنين إلى الخطب فى شأنه . وفى صلاح المسلمين وفى رجال جيشه . يحثهم على الأخذ بحقهم ، ويستنفرهم للقاء عدوهم وإلى الأوامر يصدرها إلى عماله ورجاله وأعوانه . وإلى الكتب والرسائل يبعث بها إلى الثغور والعمال ، بل وتجرى بينه وبين معارضيه ، كل يؤيد رأيه ويقيم حجته ويدعى الحق فى جهته والباطل فى جهة صاحبه . أما الحكم والمواعظ فأشياء كانت فى نفس على غرسها فيها حب الصلاح للناس يلقيها عليهم يبين لهم طريق الهدى ومنارة الحق ويذكرهم بالله ويفهمهم المعاش والمعاد ، مما يدل على اخلاص على وطيبة نفسه وسمو روحه وكرم أخلاقه وقوة إيمانه وحبه للمسلمين . . . .

ولكن الذى يعنيناهو : هل كل مافى الكتاب من خطب وأوامر وكتب ورسائل وحكم ومواعظ لأمير المؤمنين على . ؟ أم أن فيه ماليس له .. نريد أن نعرض أمام القارئ صوراً مختلفة من الكتاب نشرحها له تشريحاً دقيقاً ثم نخرج على ما يهدينا إليه البحث . وليكن أول ما نعمل فيه المبضع الخطبة الأولى من الكتاب التى يقول الرضى فى عنوانها إنها خطبة يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم ، وعبارات هذه الخطبة منسجمة سيالة آخذة بعضها

بحجز بعض . وهى مبتدأة بتحميد بديع يعقبه تنزيه لله عما لا يليق به ، وكلام فى معرفته مترتب على بعضه على مثال القضايا المنطقية ، ثم ذكر للخلق من ابتدائه إلى انتهائه على مثال ما فى الكتب المقدسة ، وذكر لخلق آدم ومعصيته وخروجه من الجنة . وذكر لذريته فى الأرض ، وكلام عن الأنبياء من أبنائه حتى انتهى إلى محمد وبعثه ؛ والقانون السماوى الذى نزل به ، وخص من ذلك الحق ، فتكلم فيه كلاماً كثيراً . ولو نظرنا إلى هذه الخطبة لوجدنا أسلوبها أقرب إلى الأسلوب التأليفى منه إلى الأسلوب الخطابى ، فهى خالية من الاندفاعات الخطابية ، ويظهر على عباراتها أنها وليدة التفكير ، فترتب العبارات على بعضها ترتباً مطرداً على مقتضى قوانين المنطق مما لا يتيسر فى الخطابة ولا يتأتى فى الارتجال ، وما كان على ليخطب غير مرتجل ، والتحميد الذى فى أولها (الحمد لله الذى لا يبلغ مدحته القائلون . ولا يحصى نعماءه العادّون ، ولا يؤدى حقه المجتهدون ، الذى لا يدركه بعد الهمم ولا غوص الفطن . الخ .)

هذا التحميد أشبه بالتحاميد التى تبتدأ بها الكتب . وهو يخالف التحاميد فى صدر الأسلام . وهو ملحق بتنزيهات كالتى تلحق التحاميد فى العصر العباسى حتى ان فى العصر العباسى مايوافقه فى المعنى ويكاد يشبهه فى اللفظ ، ويجرى معه فى النسق والترتيب والروح ، مما يجعلنا نرجح أنه من تحاميد ذلك العصر التى منها (الحمد لله المتعالى عن تشبيه الجاهلين ، وتحديد الواصفين ، وتكييف الناعتين . يوصف لا بالعرض والطول ، وينعت بغير الشبح الممثول . ويحد لا بالخلق المعدود ، والجسم الموجود ، بل بتناهى من وصفه ، الى مادل عليه من صنعه ، وبوقف من نعته ، على ما أخبر به عن نفسه . وكيف يوصف من لم يره أحد ، أو يحد من لم يحده بلد ، أو يشبه غير ذى أعضاء ، أو يكيف غير ذى أجزاء . لو رئى لوصف ، ولو وصف لمثل ، ولو مثل لكان له نظير الخ)[1] فكل هذه التنزيهات من منع التحديد والرؤية ، ونفى الصفات على نسق واحد فى التحميدين . مما يجعلنا لا نشك فى أنها وليدة عصر واحد ، ونشك فى أنها وليدة عصرين ، ثم لو قارنا هذا التحميد بتحميدات أمير المؤمنين التى يهدينا البحث الى أنها له .. لوجدنا بوناً شاسعاً فى المعنى والاسلوب والروح مما يظهر منه أن القائل غير واحد . . . ثم لنا نظرة فى هذه التنزيهات وهى قوله فى صفة الله (الذى لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن ، الذى ليس لصفته حد محدود . ولا نعت موجود ولا وقت معدود ولا أجل محدود ... أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به . وكمال التصديق به توحيده . وكمال توحيده الأخلاص له ، وكمال الأخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة . فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه . ومن قرنه فقد ثناه . ومن ثناه فقد جزأه . ومن جزأه فقد جهله . ومن جهله فقد أشار اليه . ومن أشار اليه فقد حده . ومن حده فقد عده . ومن قال فيم فقد ضمنه ، ومن قال علام فقد أخلى منه) . . هذه التنزيهات تجرى على نسق بديع من البيان والمنطق وكلها عقائد كلية فى علم الكلام .

وأهم مايطالع الباحث فيها شيئان : هما المحور الذى تدور عليه . والغرض الذى صيغت من أجله هما منع رؤية الله ونفى الصفات . فمنع الرؤية يؤخذ من العبارات الأولى ، لأن الأدراك قد نفى ، والرؤية أحد الأدراكات ، ولأنها تقتضى تكييفا وقد دلل على بطلان التكييف . ولذلك نرى ابن أبى الحديد عند شرحه لهذا الكلام يطنطن فى هذه المسألة ، ويدلل عليها بأدلة المعتزلة ، ويرد على الأشاعرة رداً قوياً ومعقولاً . وأما نفى الصفات فقد جاء صريحاً فى قوله « وكمال الأخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة » .. ونفى الصفات كلام جرى بين علماء الكلام وأخذ به المعتزلة — واحتدم فيه النزاع والجدال بينهم وبين الأشاعرة . والمعتزلة ينفون الصفات بدعوى أنها تثبت تعدد القدماء ، وأنه لابد من تغاير بين الصفة والموصوف ، وأن الموصوف يسبق الصفة ، ولذلك يحرجون الأشاعرة فيسألونهم عن كيفية قيام الصفات بالذات ان كانت زائدة عنها . والذى يعنينا من هذا الكلام أن مسألة الرؤية ومسألة نفى الصفات لم تنشأ إلا بعد نشوء مذهب الاعتزال ، وإلا بعد أن اختلف واصل بن عطاء واستاذه الحسن البصرى فى مسألة الاختيار ومسألة مرتكب الكبيرة إن لم يتب . فلم يكن لهذه المسائل أثر فى زمن على . ولم يكن لعلى أو الناس وقت يخلون فيه إلى نفوسهم ويفكرون فى مثل هذه الاشياء . . وليس عندهم مايدعوهم إلى التفكير فى هذه الاشياء . وإنما كانوا فى زمن الرسول والخليفتين من بعده يفكرون فى الفتوح وفى انهاض الدين الجديد

(١) عصر المأمون ج ٣ ص ١٥١

وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقائد .[1]
وفى زمن الخليفة الثالث حصلت فتن سياسية أفضت الى قتله .
ولم تكن هذه الفتن لتترك الناس يفكرون فى مثل هذه العقائد ، وفى زمن على قام الخلاف بين أمير المؤمنين وبين ناقضى بيعته فاشتعلت به نار الحرب وانتهى الأمر إلى الأمويين . وحصل بهذا الانقسام خلاف جديد لا فى الاشياء التى نحن بصددها وإنما فى شىء آخر هو الامامة ، انقسم الناس به إلى شيعة وخوارج ومعتدلين . .
فالمعقول إذن والمعروف من التاريخ السياسى وتاريخ علم الكلام أن هذه العقائد جاءت متأخرة عن على وزمن على وأنها نشأت بعد نشوء مذهب الاعتزال وصارت من مسائله وكلياته . . .
فالدليل ناهض والحجة ناصعة على أن علياً لم يقل هذه العبارات ولا نشأت فى عصره . . وربما كان الرضى قائلها . أو أنها وقعت للرضى منسوبة للأمام فالحقها بالكتاب

وبنظرة فى هذه العبارات نجدها عبارات تأليفية محضة ، فعبارة (نفى الصفات) وعبارة (لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف الخ) هى بعينها الجارية على ألسنة المؤلفين والباحثين فى علم الكلام حتى أن ابن أبى الحديد يقول عند العبارة الأخيرة هذا دليل المعتزلة بعينه . . ويظهر على هذه العبارات بأجمعها أنها جاءت وليدة جدل وبحث ، وأن فيها تكلفاً محسوساً جاء من إقامة الدليل المنطقى ومن قرع الحجة بأختها مما يشهد على أن هذا الكلام من أحد المتحمسين لهذا المذهب . والمنافحين عنه وأنه حدث بعد احتدام الجدل بين الفريقين م؟

« يتبع » — أبو حماد

محمد محمد العزازى

(١) رسالة التوحيد . والملل والنحل

العلم الحديث ينصف العرب

العُصـــور المظلمة

تسمية تاريخية خاطئة

للأستاذ بشير الشريقى

هذا هو الموضوع الطريف الذى أثاره فى هذه الأيام الدكتور جورج سارتون أستاذ علم التاريخ فى جامعة وشنطون ، وانى أنقله فيما يلى كما لخصته مجلة « أخبار العلم Sciernce News » فى عددها ٦٧٤ سنة ١٩٣٤

« ليعلم المؤرخون المعاصرون بأن « العصور المظلمة » لم توجد حقيقة ؛ من الجائز أن غربى أوربا قد عانى المتاعب خلال القرن السادس حتى العاشر الميلادى من جراء تراجع الثقافة الرومانية التى لم ينعم بها غربى أوربا الآ زمناً قليلاً ؛ وان المشعل الرومانى قد همد تحت أقدام البرابرة المهاجين ؛ ولكن نور الثقافة لم يخمد أبداً فى الأرض التى تطل على شرق البحر الأبيض المتوسط ، والتى هى الوطن الحقيقى والطبيعى لما نسميه خطأ «بالمدنية الغربية»

لقد انتقل مصباح الثقافة الدرى من أيدى اليونان البيزنطيين إلى أيدى العرب الفاتحين المؤمنين بالله وبمحمد ، وكان فى أيديهم أكثر تألقاً وبهاء .

إن سبب اضطراب آراء مؤرخى القرون الوسطى هو أنهم وان كانوا يجيدون اللغة اللاتينية ، فقد كانوا يجهلون اللغة العربية جهلاً تاماً ، على حين كان كل تقدم فى العلم والثقافة ، يسجل منذ عهد محمد حتى منتصف القرن الثانى عشر باللغة العربية .

ولكن هذا لا يعني بأن مدنية الاسلام المشرقة التى امتدت من قلب الهند حتى منتهى غربى أسبانيا المتوحش كانت من عمل الفاتحين فحسب ؛ يقول الدكتور سارتون ، إن العرب أول من نزلوا الميدان أسياداً للعالم ، لم يكونوا أحسن ثقافة من قبائل الهند الغربية ، ولكنهم كانوا ذوى أهبة ممتازة فاقتبسوا بسرعة عجيبة كل ما يمكن اقتباسه من مدنية البيزنطيين ، واستطاعوا فى خلال جيلين اثنين فقط أن يرتقوا فى العلم منزلة لم يرتق إليها أحد

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

من قبلهم ، وكذلك برهنت الثقافة التى نشروها على انها توافق طبيعة كل الشعوب .

إن تكييف العرب لعلوم اليونان وتوسيعهم لفنونهم قد بلغ بهم الذروة فى الفلك والرياضيات والطب والطبيعيات والكيمياء ، وهم لم يقتصروا على نشر الثقافة فيما بينهم ، بل نشروها خارج ممتلكاتهم . إن موسى بن ميمون أعظم فلاسفة اليهود ، لم يكن يكتب بالعبرية ، بل بالعربية ، ومن المسلم به الآن أن تأثير العرب كان قوياً فى نجاح القديس توماس أكونياس مؤسس مناهج الدرس فى العصور الوسطى Scholastieisn التى تعتبر بحق جسراً بين تفكير القرون الوسطى والتفكير الحديث .

وعلى ذلك فان سلسلة الثقافة ظلت تامة ولم تنقطع من عهد اليونان الى ثقافة العرب الى مدنية أوربا الحديثة ؟

شرق الأردن — **بشير الشريقي**
المحامى

تحليل نفسى

الأفعال المفقودة أو الفلتات

Les actes manqués

للدكتور عبد الفتاح سلامة

إذا كانت الأمثلة السائرة والقصص المتداولة بين الجمهور تدل على شيء ، فانما يكون ذلك لأنها نتيجة لتجارب كثيرة ، لمس كل فرد حقيقتها ، وعرف مقدار الحكمة فيها ، ويمكن له الاستفادة منها بتطبيقها على ما قد يصادفه من حوادث . وقد تكون القصة الآتية واحدة من هذه القصص ، وإنا لنذكرها هنا لأنها تحتوى على فعل مفقود أو فلتة . وإذا عرفنا أن راوى هذه القصة هو أحد رجال البوليس فان من السهل معرفة الى أى حد يمكن للبوليس والقضاء الاستفادة من هذه الفلتات .

قال صديقنا — والعهدة على الراوى — إن اثنين كانا يسيران فى جهة بعيدة عن العمران فأراد أحدهما اغتيال الآخر ، وبعد أن استعطفه دون جدوى قال له : وهل تظن أنك ناج من القصاص ؟ فأجابه : ولمَ لا ؟ فقال المسكين : « الهوا يخبر » . ولكنه قتله ووارى جثته التراب ورجع وحده الى بلدته ؛ ولم يهتد أحد الى مقر القتيل المسكين . مضى على ذلك وقت غير قصير ، واطمأن القاتل الى النجاة . وفى ذات ليلة قمرية جميلة جلس القاتل وزوجه يتبادلان الحديث — والحديث ذو شجون — وتوالت الأفكار على رأسه ، واذا به يبتسم فى غير موضع للابتسام ، واذا بزوجه تصر على معرفة سبب الابتسام ، فيقول لها إنه تذكر كلمة قالها رجل معتوه أثناء قتله ، وهذه الكلمة هى (الهوا يخَبِّرْ) . فلا تزال هى به حتى يعترف لها بكل شيء يتعلق بالجريمة وبمكان الجثة . فالابتسام إذن هو الفلتة التى كشفت سراً كان يحرص على كتمانه ؛ وهى التى حققت المثل القائل : « مهما تبطن ، تظهره الأيام » . ولا حاجة بنا الى القول بأن فلتات مشابهة لهذه قد اضطرت الزوجة الى الاعتراف الى صديقة لها ، وهكذا شاع الأمر وأمكن إدانة القاتل . ولعلنا نكون قد توصلنا بايراد هذه القصة الى إيضاح ما نقصد من كلمة « فلتات ، أو أفعال مفقودة » ، إذ أننا بعد أن تكلمنا عن تأثير الايحاء فى بعض الأمراض العصبية وكذلك فى بعض الأمراض الأخرى ، نود أن نتكلم عن التحليل النفسى ، لأنه هو الوسيلة الوحيدة للكشف عن الشاذة اللاشعورية ، وهى التى تحدث بين ذلك الشيطان — اللاشعور — والنفس .

ويكون التحليل النفسى ممكناً بالمناقشة والاستفادة من الفلتات ومن الأحلام ومن الأعراض عند المرضى . وقد سبق أن تكلمنا عن تفسير الأحلام التحليلى .

أما الفلتات أو الأفعال المفقودة فانها أفعال تصدر فى الغالب عن غير إرادة الانسان ، كأن ينطق فى سياق حديثه بكلمة لا يريدها ، وقد ينتبه أو لا ينتبه الى ما صدر منه ، (فلتة لفظية) . أو قد يكتب كلمة غير التى يريد كتابتها ، أو قد ينسى كلمة كان يود أن يكتبها ، (فلتة كتابية) . وقد ينسى الانسان شيئاً كان يذكره منذ لحظة قصيرة ، فيبحث عن قلم وهو فى يده ، أو يريد أن يتذكر اسم شخص أو بلد كان يعرفهما تماماً ، ولكنه لا يمكن له ذلك ، (فلتة من فلتات الذاكرة ، وهو ما نسميه بالنسيان) .

وكذلك قد تتحدث الى شخص وهو منتبه اليك ، ولكنه لا يلبث أن يسرح ببصره فى الفضاء ، أو أن يتغير لونه ، أو أن يلعب بأصابعه فى أى شيء ، ثم يسألك أو لا يسألك بعد ذلك عما كنت تتحدث به اليه لأنه (لم يأخذ باله) . وهذا بالطبع معناه أنه حدث له ماصرف انتباهه الى ناحية أخرى .

فلماذا لفظ الانسان أو كتب ما لا يريد ؟ ولماذا نسى ما كان يعرفه تماماً منذ لحظة قصيرة ؟ السبب فى ذلك هو فى وجود رغبتين عند الانسان ، وفى أن إحداهما مكبوتة refoulé ، والرغبة المكبوتة قد تكون لاشعورية أو شعورية أو تمييزية كذلك ، ولكنها فى الغالب رغبة لاشعورية ، حيث لا يعرف عنها صاحبها شيئاً إلا بعـــد التحليل . أما اذا كانت شعورية أو تمييزية فان صاحبها ليس فى احتياج الى تحليل لمعرفتها . هذا فيما يتعلق بالرغبة المكبوتة . أما الرغبة الأخرى فانها فى الغالب رغبـة تمييزية ، ولكنها قد تكون شعورية أو لا شعورية كذلك ؛ فصاحب الفعل المفقود إذن يجد نفسه أمام رغبتين ، وهو فى أثناء تعبيره عن الرغبة غير المكبوتة عنده تتحين الرغبـة المكبوتة أى فرصة للظهور ، وهى عند ماتسنح لها هذه الفرصة تجد سبيلها الى الظهور بواسطة أى لفظ أو حركة تنم عليها ، وهذا اللفظ أو الحركة هو ما نسميه الفلتة أو الفعل المفقود أو الفعل غير الارادى acte manqué أو lapsus

ومع أن الفعل المفقود قد أظهر الرغبة المكبوتة فانه لم يتمكن من تنفيذ هذه الرغبة ، لأن الانسان سرعان ما يستنكر صدور هذه الفلتة منه ، ويتساءل كيف أخطأ فى تعبيره . والواقع أن الرغبة المكبوتة وهى التى سببت هذه الفلتـة قد اكتفت بهذا التحقق الرمزى أو التلميحى بواسطة الفعل المفقود ، لأن التحقق الفعلى تأباه عليها ظروف الحياة ، فهو إذن غير ممكن لها . وهكذا تكتفى الرغبة المكبوتة بالأوهام بدلاً من الحقيقة الواقعة ، ومثلها فى ذلك مثل الأفكار الذاتيـة التى سبق أن تكلمنا عنها سواء بسواء . لأن الرغبة المكبوتة مهما كانت شعورية أو تمييزية فانها فى الأصل من اللاشعور ، وهو الذى يكتفى فى تنفيذ رغباته بالأوهام .

وأما الفرص التى تنتهزها الرغبة المكبوتة فهى كثيرة : فالتعب واهتياج الشعور والاجهاد الفكرى وكل ما من شأنه أن يقلل من انتباه الانسان يساعد على إيجاد هذه الأفعال المفقودة .

والرغبتان اللتان نشأ عنهما الفعل المفقود قد تكونان متعارضتين ، فيكون اللفظ إذن عكس ما كان يراد تماماً ، وقد تكون إحدى الرغبتين معدلة للأخرى أو مكملة أو مؤكدة لها ؛ وسنذكر فيما بعد بعض الأمثلة على كل نوع منها . ولنرجع الآن الى ابتسامة القاتل التى سببت اكتشاف سره ، ونرى هل هى الأخرى وليدة رغبتين عنده ؟ وهل فى هاتين الرغبتين مايدل على التعارض ؟ والى أى حد يمكن استخدام الفلتات فى الكشف عن خفايا نفسية المجرم ؟ فلقد جلس هذا الى زوجه وعنده رغبتان : الأولى حب الظهور بالبطولة ، وإظهار بأسه وقوته . والثانية حب كتمانه لما فعل خوفاً من تسرب الأخبار والوقوع تحت طائلة العقاب ، فهو إذن بين رغبتين تتنازعانه ، وبينما تشـــتد رغبة النجاة فى كبت رغبة الزهو والاعتداد بالنفس إذا بهذه الرغبـة الأخيرة تنتهز الفرصة للظهور فى وقت ضعف الرغبة الأولى تحت تأثير الهوى . وهكذا يتحقق الزهو والفخر ، ولكن هذا التحقق انما هو إلا تحقق رمزى وذلك بالابتسام ، وما الابتسام إلا رمز الانتصار ، لأن رغبة النجاة مهما ضعفت فانها لا تسمح بالاعتراف والفخر الصريح . وهكذا كان ، فقد ابتسم الرجل فى غير موضع الابتسام ، ولكنه مع ذلك يأبى الاعتراف الصريح أولاً . وهنا نرى الزوجة تقوم بدور المحلل النفسى فتستخلص منه ما كان يأبى الاعتراف به .

وإذا كنا فيما سبق قد قلنا إن الشعراء والأدباء والفنانين يستخدمون الخيال ، فان ذلك من دواعى الفخر لهم ، لأن التخيل ممكن وموجود عند كل انسان ، وانما امتاز هؤلاء بامكان استخدام خيالهم وتحقيق أحلامهم على صورة رمزية جميلة تأخذ بالألباب . وفوق ذلك فان لهم من حسن الذوق ودقة الحس مايسمح لهم بملاحظة كل ما يمر أمامهم من دقائق الحياة ، وهكذا فان الأفعال المفقودة أو الفلتات لم تفت عليهم ، بل انهم استخدموا هذه الأفعال لتجميل الأسلوب وتوضيح المقصود ، وقد أظهر لنا فرويد مثلين من ذلك . ففى رواية تاجر البندقية لشكسبير تقول بورشيا لبسانيو الذى يتقدم إلى الصناديق الثلاثة ليجرب حظه فى نيل يدها « إن عينك هذه تقسمنى إلى نصفين . فالنصف الأول لك وأما النصف الثانى فهو لك . . . . أريد فهو لى » . والسبب فى هذه الفلتة الكلامية هو أن بورشيا تريد أن تقول إنها كلها له . وفى رواية أخرى . يقول كاستنبرج لاوكتافيو . (إلى أين أنت ذاهب) . فيجيب اوكتافيو (إليها . . . إلى الدوق هيا بنا) والسبب فى هذه الفلتة أيضاً هو رغبة اوكتافيو فى اللحاق بالفتاة التى يحبها

وأما النكت والفكاهات التى تقال على البديهة فانها نوع آخر من الأفعال المفقودة ، إلا أن قائلها يتذرع بالضحك لستر رغباته الكامنة ، ومع ذلك فان هذه الرغبات كثيراً ماتكتفى حقيقة بالأوهام ، فلا تصر على التنفيذ الحقيقى لها ، وإنما تكتفى بالرموز والتلميح كما تقدم .

ويمكن استخدام هذه الأفعال فى انتخاب الأسئلة المحرجة وفى توجيه الاتهامات والمناقشة إلى الهدف الذى يرمى اليه المحقق ، أما فيما يتعلق بالمرضى فان التحليل النفسى لا يطمع من المريض أن يعترف برغباته اللاشعورية ، ولكنه يطمع فقط فى أن يعرف المريض رغباته فى أثناء المناقشة معه ، ولو أنه قد ينكرها بتاتاً ، وقد يكون ذلك الانكار خجلاً أو لأى سبب آخر ، ولكن إنكاره هذا لايمنع من وصول رغبته إلى الشعور ، ومن ثم إلى التميز لمناقشتها . فليس الاعتراف إذن ضرورياً للشفاء مادامت الرغبة قد وصلت إلى التميز ، والانكار نفسه قد يكون طريقة من طرق السمو بالرغبة ، وهذا السمو هو فى الواقع ميزة من ميزات التحليل النفسى ومن أجلها يفضل على الايحاء . والرغبة المحرمة يسمو بها الانسان إذا صورها وعدلها فاصبحت غير مخالفة لنظام المجتمع وتقاليده . فقد يفكر الانسان فى الاضرار بأى شخص كان لكراهيته له ، وذلك إظهاراً لمقدرته على البطش والأذى ، ولكنه قد يسمو فيكتفى فقط باظهار قدرته على الأذى ثم يعفو ويتسامح بعد ذلك . وهذا هو مايحدث تماماً عند مايسمو المريض العصبى برغبته . ولكن رغبة هذا المريض العصبى ليست من هذا النوع البسيط من الرغبات فانها هى والرغبات التى تتجلى فى الأحلام والتى تملى على الفنان فنه ليست إلاّ رغبات جنسية تتعلق بأشخاص من ذوى القربى ، وقد عرف كل من المريض العصبى ، وصاحب الرؤيا ، ورجل الفن طريقه إلى تحقيق رغبته . وإن كان هذا التحقيق رمزياً مشوهاً لايدل فى الظاهر على أى رغبة محرمة ، ولكن التحليل فى كل الحالات قد أثبت أن أعراض المريض والرؤيا ومنتجات الفن ليست إلاّ هذا التحقيق الرمزى المشوه لهذه الرغبات . فالرغبة المحرمة المجهولة لصاحبها لأنها مكبوتة بفعل الضمير هى أصل كل أعراض المرض ، وهى أصل الرؤيا ، وهى التى توحى الفن إلى الفنان ، بل هى سبب التخيل وكل ما يبنيه الخيال من تصورات وأمان ، وإذا كنا قد ذكرنا الفنان هنا فان من الانصاف أن نقول إنه عرف كيف يسمو برغبته ذلك السمو البارع الجميل .

ولا يمكن أن يكون هذا الموضوع تاماً إلا إذا تكلمنا عن المسألة الجنسية ، وعن قصة أوديب الملك كما ينظر اليها فرويد ، وهذا ما نرجو أن نتمكن من إيضاحه فيما بعد ، إلاّ أن ماسبق أن أوردناه يسمح لنا أن نقول إن الايحاء وحده لايمكن أن يثمر الشفاء التام الدائم إلا إذا سبقه التحليل والكشف عن الرغبات الكامنة السالفة الذكر . ولنرجع الآن إلى الموضوع الذى يشغلنا وهو الفلتات أو الأفعال المفقودة . فقد بينا أن هذه الفلتات قد تكون كلامية . كأن يذكر كلمة غير التى كان يود أن يقولها أو يقرأها إذا كان يتكلم أو يقرأ من أى ورقة أو كتاب . أو فلتة سماعية ، كأن يسمع كلمة غير التى قيلت له أو بمعنى آخر يتخيل سماع الكلمة المعينة ، أو فلتة كتابية كأن يكتب غير الكلمة التى كان يريد كتابتها أو يمحو كلمة غير التى كان يريد محوها . أو فلتة من فلتات الذاكرة وهو ما نسميه بالنسيان — وقلنا إننا سنذكر بعض الأمثلة على كل هذا ، وأن الكلمة الخطأ قد تكون عكس الكلمة المطلوبة — المخالفة قد تكون فى ترتيب الحروف وفى معنى الكلمة — أو معدلة لها أو كلمة مدغومة فى غيرها . الخ والواقع أن الأمثلة على كل نوع منها كثيرة ولا تدخل تحت حصر ، ومن منا لم يسمع أو يلاحظ الكثير منها فى كل يوم وفى كل مكان ؟ . ولهذا فانى أترك الأمثلة لمن يود أن يلاحظ بنفسه هذه الفلتات وأن يتعرف إلى الغرض الذى حدثت من أجله . وأتكلم الآن عن فلتات الذاكرة أو النسيان ، فقد أخبرنى صديق لى أنه أراد مرة أن يتحدث عن شخص عرفه من مدة قريبة وعرف اسمه وسمع ذلك الاسم مراراً ، ولكنه مع ذلك كان ينسى اسمه كلما أراد أن يتحدث عنه . وبعد جهد فى محاولة استذكار الاسم فانه يذكر اسما آخر على أنه الاسم مطلوب — وهكذا يسمى صديق ذلك الشخص (شافعى) دائما بدل اسمه الحقيق ، وذلك بعد جهد فى التذكر بدون جدوى ، وهو إذ يقول إن اسمه شافعى لايقولها بصفة التأكيد أيضاً فى كثير من الأحيان : وفى ذات مرة بعد لحظة قصيرة من التأملات أخذت الأفكار تتوالى على

عقله ولم يكن يقصد أن يتذكر الاسم الذى ينساه دائماً وإذا به يصيح فجأة إن اسمه (شلبي)

نعم . هذا هو ماحدث لصديقى ، وأراد أن يعرف لماذا نسى ذلك الأسم ، ثم لماذا ذكر شافعى بدل شلبي مع شكه أيضاً فى أن ذلك هو اسمه الحقيقى . ولما سألته أن يذكر لى كل مايعرفه عن أى شخص آخر يسمى بنفس هذا الأسم (شلبي) أخبرنى أنه كان يعرف شخصاً بهذا الأسم ولكن لم تكن بينهما صداقة ما . بل بالعكس فانهما كانا متنافرين — هذا يفسر لنا نسيان الأسم (شلبي) ولكنه لايفسر لماذا يسميه شافعى فى كثير من الأحيان فسألته أن يذكر لى شيئاً عمن يعرفهم باسم شافعى هذا . وهنا صاح متعجباً أنه يعرف شخصاً محترماً بهذا الأسم وأن هذا الشخص المحترم (شافعى) من حيث الخلقة والشكل العمومى يشبه (شلبي) ذلك الشخص المكروه الذى مضى على معرفته إياه وقطعه كل علاقة به زمن طويل — هذا هو اذن سر ابدال الأسم ، وهو جواب ما كان يسأل عنه .

وقد ذكر فرويد أن رجلاً كان بينه وبين زوجته نفور ، ولكنه لم يكن قد صارحها بأى شىء ، وهى مع ذلك تحبه وتخلص له . وقد أهدته كتاباً شيقاً فى نظرها ليقرأه . ولكنه وضعه فى جهة معينة ولما اراد البحث عنه لقراءته لم يتمكن من تذكر المكان الذى وضعه فيه برغم كل الجهود التى بذلها فى هذا السبيل . ثم حدث أن والدته مرضت مرضاً شديداً حمل زوجته على أن تعتنى بها وتمرضها ، وكان من نتيجة ذلك أن شعر الزوج بشكره لزوجته لعنايتها بوالدته ، وتحول هذا الشكر الى تقدير ، ثم رجع الحب الى سابق عهده . ثم لما رجع الى بيته ذات يوم فتح درجاً من أدراج المكتب بدون أى فكرة عن امكان العثور على الكتاب ولكنه لدهشته وجده فيه ، برغم مضى أكثر من ستة أشهر على وجوده فيه ، وبحثه عنه على جملة مرات فى هذه المدة .

أليست عوامل المودة والنفور هى التى تؤثر فى النسيان والتذكر وحدها ؟ فاننا سبق أن تكلمنا عن فعل الضمير فى هذا الشأن ، وكيف أنه يكبت الرغبة فيردها الى اللاشعور ، ولست فى حاجة الى القول بأن الأنسان لايذكر أو بمعنى آخر لايشعر إلا بما يعرفه الجزء الشعورى من عقله . فكل فكرة تتمكن من الوصول الى الشعور فهى شعورية ، أى أن الأنسان يعرفها ويذكرها ، وكل فكرة ترتد الى اللاشعور أو تحفظ فيه فهى فكرة لاشعورية لايعرفها الأنسان ولا يذكر الحوادث المتعلقة بها . على أنه من السهل التنقيب عما يوجد فى ذلك المخزن — اللاشعور — اذا ترك الأنسان لحرية تفكيره العنان ، فلا يعترض حرية التفكير هذه بنقد أو تجريح ولا يرى أى فكرة تأتى اليه بأنها غير معقولة أو غير جائزة أو الخ . . . بل يترك نفسه للتفكير فلا تلبث الأفكار إذن أن تتوالى كما يقول المثل — الشىء بالشىء يذكر — لأننا سبق أن بينا أن الأفكار والرغبات مسجلة على قواعـــد الأصطحاب والقرينة ، أى أن الأشياء المتشابهة أو المتضادة — والمتقاربة والمتباعدة مسجلة بالقرب من بعضها ، واذا ذكر أحدها فلا بد من تذكر الآخر . واذا ذكر الأنسان صديقه فلا يلبث أن يذكر أشياء كثيرة معه كبيته أو المقهى الذى يجلسان به أو الكلام الذى حدث بينهما ، واذا تذكر هذا المقهى فقد يذكر مقهى آخر فى أوربا أو أى بلد آخر ، ويذكر معه الحوادث التى مرت به فى هذا المقهى الآخر وهلم جراً .

فاذا كانت الفلتات تخدم التحليل النفسى لأنها توجه نظر المحلل الى وجهات مهمة فتوحى اليه بالاسئلة الواجب القاؤها على المريض ، وهذا يتطلب من المحلل ذهناً صافياً وفكراً سليماً ، فان على المريض واجباً آخر يجب عليه أن يرعاه ، وهو أن يلتزم الأخلاص فى كل اجاباته على الأسئلة التى توجه اليه ، ويجب أن يعلم أن مقدار اخلاصه هذا يعرفه الطبيب المحلل نفسه . وفوق ذلك فانه يجب أن يترك أفكاره حرة من كل قيد فيجيب بكل ما يخطر على باله بصرف النظر عن موافقة ذلك للمعقول والجائز أو مخالفته لهما .

ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن شاعرنا شوقى بك فى روايته الخالدة « مجنون ليلى » قد ذكر فلتة على لسان ليلى العامرية ، فقد ذكرت المسكينة اسم قيس مرتين دون أن تشعر ، ولما نبهتها زميلة لها الى ذلك قالت : وأى شىء فى ذلك لو ذكرت قيساً ثلاثاً . ثم قالت « ياقيس ناجى باسمك القلب اللسان فعثر » .

دكتور عبد الفتاح سلامه
طبيب مستشفى برقاش

٩ ـ أعيان القرن الرابع عشر

للعلامة المغفور له احمد باشا تيمور

محمد افندى أكمل

هو محمد أكمل بن عبد الغني بك فكرى بن لطف الله بن حسين ، الشاعر الأديب الظريف ؛ ولد بالقاهرة ونشأ بها واعتنى والده بتعليمه وتهذيبه ، ثم أدخله فى الديوان الخديوى للتعلم كتلميذ ، وكان من كبار كتاب هذا الديوان مدة الخديو اسماعيل باشا ، فجود الخط به وألمّ باللغة التركية ، وكانت له حدبة بظهره شوهت خَلْقه ، ورأى والده أن لامطمع فى استخدامه بمنصب لائق ، لحدبته وقصر قامته ، فاستحسن له طلب العلم بالأزهر ، وكان يرجو أن يكون من كبار العلماء ، فلازم الطلب به وقرأ النحو والعلوم العربية على الشيخ أحمد المنصورىّ ، والشيخ محمد البجيرمىّ ، وكان أحدب مثله ، وكثيراً ما كان يقعده بجواره فى حلقة الدرس . ثم انقطع عن الطلب ولازم والده ، وكان والده جمّاعة للكتب ، مغالياً فى اقتنائها شراء واستنساخاً ، ينفق عليها جلّ ما يصل ليده ، ويحيى الليالى فى مقابلة مايستنسخه منها وتصحيحه وضبطه ، فكان المترجم يعاونه فى ذلك ، واطلع بهذا السبب على كثيرمن الكتب العلمية والأدبية والدواوين الشعرية ، وعاشر من كان يجتمع بوالده من العلماء والأدباء وتردد عليهم واستفاد منهم ، وعرف مدة طلبه بالأزهر كثيراً من أدبائه وشعرائه المجيدين كالشيخ عبد الرحمن قرّاعة ، والشيخ أحمد مفتاح وحفني بك ناصف وغيرهم ، فاستفاد منهم أيضاً ، ونظم الشعر والزجل وأدوار الغناء ، واشتهر بحسن المحاضرة وملاحة التندير وسرعة الجواب وخفة الروح ، وكان كثيراً ما يجعل محور تنديره دائراً على حدبته ، فيأتى بما يضحك الثكلى ، بل كان لايأنف من ذكرها فى شعره ، كقوله من زجل فى الوباء الذى حلّ بمصر أوائل سنة ١٣٢٠ وما فعله الأطباء من الهجوم على الدور وترويع ربات الخدور :

شـاعرْ وناثرْ زجّالْ عالْ ... فنّ الأدبْ فيدهُ (١) لِعبَهْ
لطيفْ زكى وفهْمُهْ سيّالْ ... ورِقّتُهْ مِنَ اللهْ وَهْبَهْ
مخْلِصْ لاخْوانُه ومَيّالْ ... نادْرَةْ زَمانُهْ ولُه حدَبَهْ
مافيهشْ عيْب ظاهرْ معروفْ ... قصيرْ ولكن فِيهْ أقْصَرْ
واللى يعيش ياما بيشُوفْ ... واللى بيمْشى يِشُوف أكْتَرْ

ومن ولوعه بحدبته شرع فى جمع كتاب فى نوادر الحدبان وما قيل فيهم من الأشعار ، وتراجم مشهوريهم ، أخبرنى أنه جمع منه جزءاً إلا أنه لم يتمه

ونقل والده مدة محمد توفيق باشا الخديو من الديوان إلى المحاكم الأهلية قاضياً ، وتوفى يوم الثلاثاء ٢٩ المحرم سنة ١٣٠٧ وخلف له ولاخوته ضيعة بالصعيد أصاب المترجم منها ستون (فداناً) باعها وبدد ثمنها بالاسراف حتى احتاج للاستخدام بديوان الأوقاف بمرتب قليل دون الكفاف ، وعاش فى ضيق ومضض بعد ما تعوده من السعة والرفاهية ، وأخذ يتقرب للخديو بنظم التواريخ فى كل عيد واحتفال وحل وترحال وينشرها فى صحف الأخبار رجاء أن تبلغه فيأخذ بيده فلم يستفد شيئاً وراح تغزّله فى الريح ، وكان قصر شعره فى أواخر عمره على هذه التواريخ فنظم منها الغث والسمين . وكنا إذا قرب عيد أو سفر أو قدوم للخديو لانتفع به لاشتغاله بالنظم والحساب وإعمال الروية فيصير هذا ديدنه فى غدوه ورواحه وقيامه وقعوده حتى يمن الله عليه بشىء يرتضيه

وترك له والده غير الضيعة داراً بسوق الزلط بيعت أيضاً ، وترك خزانة كتب كبيرة قل أن تضارعها خزانة فى نفائس الكتب ونوادر الأسفار ، وهى التى أفنى عمره وماله فى جمعها ، وأتعب نفسه فى تصحيحها وضبطها ، وصبغ الورق وصقله لنسخ ما كان يستنسخه منها ، فوق ما كان يتكلفه من السعى فى البحث عنها فى الخزائن المهجورة وعند الورّاقين ، واتخذ له فى داره مصنعاً للتجليد ، واستخدم عدة نساخ أجرى عليهم المرتبات فاختصوا بالنسخ له لا يشتغلون لسواه ، وكان هو وعبد الحميد بك نافع من أدباء القرن الثالث عشر يتباريان فى ذلك ويتسابقان . أخبرنى المترجم عن والده أنه بلغه أن تاجراً من الورّاقين قدم من سفر بكتب أوصاه عبد الحميد بك نافع بجلبها له وبينها ديوان البحترى

(١) أى فى يده

وكان اذ ذاك لم يطبع بل لا يعرف فى مصر إلا باسمه ، فأسرع إليه وبذل له مالاً فوق قيمة الديوان على أن يعيره له يوماً وليلة فقط يطالع فيه ، فرضى وأعاره إياه ، فلما أتى به لداره أعطاه لمجلده ففك له تجليده وأحضر فى الحال عدة نساخ فرقه عليهم كراريس فنسخوه وقابلوه ، ولم يمض اليوم والليلة إلا وقد ردت النسخة الأصلية لصاحبها مجلدة كما كانت ، ثم قابله بعد ذلك عبد الحميد بك وأخذ يفاخره بوجود الديوان عنده واختصاصه به ، فقال له خفّض عليك يا أخى هذا شىء أكلنا عليه وشربنا حتى مججناه ، ثم أخرج له نسخة الديوان من الخزانة . وبلغه مرة وهو يسمر مع بعض أصحابه أن بعضهم رأى عند فلان الوراق رسالة من الرسائل ، وكان هو يتطلبها من زمن وينشدها فلا يجدها ، فلم يسعه إلا أن قام فى الحال وأخذ يسأل عن دار الوراق من هنا وهناك حتى اهتدى إليها بعد ما مضى هزيع من الليل ، فأيقظه من نومه وساومه فى الرسالة بقيمة فوق قيمتها ولم يمهله للصباح بل أنزله من الدار وذهب معه إلى حانوته ففتحه ليلاً وأخرجها له ولم يهدأ له بال حتى باتت الرسالة عنده . فلما مات عرّض المترجم كتبه للبيع فبيعت وتفرقت واقتنى نفائسها ونوادرها الكونت لندبرج قنصل السويد بمصر ، وكان من مستعربى الأفرنج المولعين بجمع الكتب العربية ، وأدركت أنا أواخرها فاقتنيت منها بضعة عشر كتاباً ، منها ما هو بخط عبد الغنى بك نفسه ، وبحواشيها آثار التصحيح واختلاف النسخ التى كان يقابلها بها

وكان أول التقائى بالمترجم فى دار ابن أختى محمود توفيق بك ، وهى إذ ذاك مجمع الأدباء ومحط رحال الفضلاء ، فلما رأيته استغربت شكله واستملحت محاضرته ، ثم رأيته يناقش الأدباء ويطارحهم الشعر ، فدنوت منه وكنت صغيراً فى أول الطلب ، وقد تعذر على فهم باب أفعل التفضيل ، وأجهدت نفسى فى درسين متواليين على تفهمه ، فلم يفتح على بشىء فيه ، فسألته عنه فأوضحه لى بعبارة سهلت على فهمه ، فكان بعد ذلك كثيراً ما يقول لى ممازحاً : إذا ذكرت شيوخك فاذكرنى معهم ولا تنسنى. ثم تأهل ببنت حنفى بك ، وكان لأسرتها نوع اتصال بنا ، فاتصلت المودة بينى وبينه بهذا السبب ، وازدادت ملازمته لى لما سكن بجوارنا ، فكان يزورنى عصر كل يوم ويبقى حتى نسمر معاً ثم ينصرف ، فتارة كنا نحيى الليالى بمسامرات أدبية ومذاكرات علمية ، أو بمطالعة بعض الكتب ، وتارة بمقابلة ما كنت أستنسخه وتصحيحه ، وكان لا يمل من المقابلة مهما يطل الوقت فيها ، ويقول هذا شىء دربنى عليه والدى وعودنى إياه من الصغر . وأشار علىّ مرة استاذنا العلامة محمد محمود الشنقيطى أن أطالع أمالى ابى علىّ القالىّ مطالعة امعان وتدبر ، ولم تكن طبعت بعد ، فاستنسخت منها كراريس عكفت على مطالعتها ، وأخبرت المترجم أننى سأحتجب عن الناس بضعة أيام حتى أستوفى ما بهذه الكراريس ، فغاب عنى ثلاثة أيام ثم حضر ومعه زجل ، ينحى فيه على الأستاذ وعلى أبى على القالى اللذين تسببا فى انقطاعى عن الاخوان ويذكر فيه بعض من كان يجتمع بنا

وقد أطلعته على رسالة عندى جمعها الشيخ احمد الفحماوى صاحب الخط الحسن ، المشهور بكتابة لزوم ما يلزم للمعرى وسماها (بنات أفكار وعرائس أبكار فى ألقاب أهل العصر) ذكر بها كنى وألقاباً وضعها لفضلاء أواخر القرن الثالث عشر عبد الحميد بك نافع ، وابراهيم افندى طاهر الشاعر الرقيق المشهور على سبيل المزاح والدعابة ، فلقبا كل واحد بلقب شاعر متقدم ، أو رجل مشهور يوافق اسمه هيئة الملقب به ، أو شيئاً يغلب على أخلاقه وأحواله ، كتلقيبهما مصطفى افندى المنعوت بكامل بالمكوك ، لأنه كان قصيراً جداً معوّج القدمين ، وتلقيبهما الشيخ محمد الرافعى الكبير شيخ رواق الشاميين بالأزهر وأحد كبار علمائه بملاّ مسكين ، لأنه كان نحيفاً وبقوامه بعض احديداب يرى كأنه متواضع وانكسار ، وتلقيبهما عبد الغنى بك أبا المترجم بالأخطل ، لأنه كان ضخم الجسم كبير الهامة . فلما اطلع المترجم عليها جن بها جنوناً وشرع فى وضع رسالة تماثلها فى فضلاء عصره ، وسألنى مشاركته فيها كما فعل ذانك الأديبان فامتنعت خشية اللوم ، فانفرد هو بتأليفها وأتى فيها بغرائب ذهب أغلبها عن الذهن لطول العهد ، فمن ذلك تلقيبه للعالم الفاضل على رفاعة باشا ابن رفاعة بك المشهور ، بابن المقفع لنحافته ودخول شدقيه ، وتلقيبه للعالم الفاضل يحيى افندى الأفغانى بالقدورى لغرابة شكله وقصر ساقيه تشبيهاً له بالقدر من الفخار ، والقدورى اسم عالم من الحنفية مشهور . وكان الشيخ محمد الحفنى المهدى ابن أخى مفتى مصر الشيخ العباسى المهدى ولعاً بذم الناس

منقباً عن معايبهم ، لهجاً بها فى المجالس ، لم يسلم منه أحد حتى عمه ، واشتهر بذلك حتى أبغضه عارفوه وتحاموا عن الاجتماع به ، فلقبه بابن هرمة ، وهى كلمة سب عند العامة ، فقلت له هذا لا يستقيم لك لأن ابن هرمة الشاعر بفتح أوله فتأنف وقال لا أجد له لقباً ينطبق عليه غير هذا فدعنى من شنقيطيتك . ثم لما فرغ منها سألته عما لقب به نفسه ، ففكر وقال أحسن لقب ينزل علىّ ابن قتيبة ، ثم تركه وتلقب بالقوتس . وضاعت هذه الرسالة فيما ضاع من أوراقه وأشعاره ، ويغلب على الظن أنه مزقها لأنه وقع له بسببها نفور بينه وبين بعض من لقبهم ، فانه لما لقب صاحبنا وصاحبه الشيخ احمد مفتاح لسلامة طويته ، بالأبله البغدادى ، غضب منه وكاد يتفاقم الشر بينهما ، وغضب منه صاحب آخر كان قصيراً ممتلئاً يتدحدح فى مشيته كما يتدحدح البط لأنه لقبه بابن بطوطة ، فأخفى الرسالة لهذا السبب وطوى ذكرها .

وكان رحمه الله مجيداً فى الزجل ، متقناً لصياغة الأدوار التى يتغنى بها ، وأكثر ما كان متداولاً منها بين المغنين فى عصره كان من نظمه ، وأما شعره فالاجادة فيه قليلة إلا ما ضمنته النكت والتندرات العامية ، فمن أحسن ما وقفت عليه منه قوله من مرثية فى صاحبه على رفاعة باشا

جزعت وللحرّ أن يجزعا ... وودّعت صبرى إذ ودّعا
وجادت عيونى على بخلها ... وحق لها اليوم أن تدمعا
وروّع قلبى النوى بعد ما ... أمنت ومثلى كم روّعا
لحا الله يوماً أشاعوا به ... وقالوا أمير العلا شيعا
فما كان أصعب تأبينه ... وما كان أسوأه موقعا
وما كان حتى البكاء ولكن ... فزعت ولا بدع أن أفزعا
تجرعت من هوله كل صاب ... وغيرى من الناس كم جرعا
وما دار فى خلدى أننى ... أرى البدر يرضى الثرى مضجعا
ولكن شأن الزمان عجيب ... فما كان أضيع عهداً رعى
يقول النعىّ علىّ قضى ... ولم يدر أن العلا قد نعى
نعى سيداً صيته طائر ... حوى الفضل فى شخصه أجمعا
فدكت رواسى الدنى بعده ... وماد الزمان بما أودعا
وغابت شموس المعارف لما ... ذوى غصنه بعد ما أينعا
فقل للخطابة ذوبى أسى ... ولا تطلبى بعده مصقعاً
وقل للكتابة لا تحفلى ... بمن يتبجح فى المدعى
وقل للعلوم فقدت أميراً ... مضى تاركاً فضله مشرعاً

وقال موريا باسم الطبيب سعد بك سامح :

ياسعد مالك معرضاً ... عنىّ وقلبى فيك طامحْ
إنى أتيتك قائلاً ... أنا تائب ياسعد سامح

وقال موريا باسم محمد ثابت :

ان كنت فى ريب بصدق محبتى ... وسمعت عنى ما تقوّل شامت
فاعلم فديتك دائماً انى على ... عهد المحبة يا محمد ثابتُ

ولما مرضت شقيقتى السيدة عائشة التيمورية وأحست بدنو الأجل نظمت فى مرضها أبياتاً لتكتب على قبرها وتركت مصراع التاريخ لمن ينظمه بعدها وهى :

قد كنت عائشة فنوديت ارجعى ... للقبر مأوى كل حىّ فان
فأتيت صفر الكف عن مرضاته ... ومقرة بالعجز والعصيان
جرّدت من ثوب الهدى لكنّ لى ... تاجاً من الاسلام والايمان
ونزلته مستشفعاً بمحمد ... وتوسلى عفواً من الرحمن
أصبحت ممن زار لحدى راجياً ... خير الدعا وتلاوة القرآن
لكم البقا إخوان دينى أرّخوا

فنظم المترجم التاريخ بقوله : (قبر لعائشة سما بجنان)

٣٠٢ ٨١١ ١٠١ ١٠٦

١٣٢٠

وله غير ذلك مما ذهب عن الذهن الآن ، ولكثرة ممارسته للتواريخ الشعرية كان يأتى فيها أحياناً بغرائب فى ابراز المقصود بدون حشو كقوله فى تاريخ ولادة ولده عبد الغنى : (عبد الغنى ابن أكمل) .

وكانت وفاته فجأة قبل ظهر يوم الثلاثاء ٢٢ ذى القعدة سنة ١٣٢١ ودفن بمقابر باب النصر رحمه الله تعالى .

مجموعة السنة الأولى للرسالة

مِنْ طَرائِفِ الشِّعْرِ

تعـــالي

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

تعَالَىْ نسْأَلِ الذِّكْرَىٰ عَنِ الْحُبِّ وَمَاضِيهِ
وَعَنْ سِحْرِ لَيَالِيهِ وَعَنْ حُلْوِ أَمَانِيهِ
حَكَايَا مَا تَنِي تَنْهَلُ مِنْ ضِحْكٍ وَتَمْوِيهِ
قَصَصْنَاهَا عَلَى قَلْبَيْنِ مَغْمُورَيْنِ بِالتِّيهِ
وَهَذَا اللَّيْلُ كَمْ أَصْغَى وَكَمْ أَصْغَتْ دَرَارِيهِ
لَقَدْ قَرَّبَنَا الْحُبُّ وَضَمَّتْنَا أَوَاخِيهِ
وَلَمْ تَنْوِ القِلَى أَهْلِي فَلِمْ أَهْلُكِ تَنْوِيهِ
حَيَاتِي مِنْكِ فِي نَوْحٍ وَتَعْذِيبٍ وَتَأْوِيهِ
فَيَا أَظْفَرُ فِي الْهَجْرِ بِطَيْفٍ مِنْكِ أُصْبِيهِ
أُفَدِّيهِ بِأَحْلَامِي . فَيُسْلِينِي وَأُسْلِيهِ
وَأُغْرِيهِ بِأَشْعَارِي فَيُبْكِينِي وَأُبْكِيهِ

* * *

وَكَمْ قَاسَمَنِي اللَّيْلُ أَنِينًا بِتُّ أُخْفِيهِ
شَجَانِي مِنْهُ مَا أَشْجَى وَأَضْنَانِي مُضْنِيهِ
أَسًى لِلْقَلْبِ مَا يَنْشُدُ إِلَّا مَا يُعَنِّيهِ
وَمَا يَبْرَحُ طُولَ الدَّهْرِ طِفْلًا فِي تَمَنِّيهِ
يَعُدُّ الفَرْحَةَ الكُبْرَى لِحُبٍّ كَامِنٍ فِيهِ

* * *

إِذَا سَاوَرَنِي الْوَجْدُ وَأَطْيَافُ لَيَالِيهِ
وَأَضْنَى قَلْبِيَ الْهَمُّ وَأَحْزَانُ عَوَادِيهِ
لَمَسْتُ الْبُرْءَ فِي اللَّيْلِ وَفِي صَمْتِ دَيَاجِيهِ
كِلَانَا مُوحَشٌ رُوحًا سَقِيمٌ غَابَ آسِيهِ

* * *

إِذَا ضَاعَ لَكَ الْحُلْمُ الذِي عِشْتَ تُرَجِّيهِ
فَمَا تَطْمَعُ فِي الْعَيْشِ وَلَا يُغْرِيكَ حَالِيهِ

* * *

لَقَدْ لَقَّنَتِنِي الْحُبَّ وَمَعْسُولَ أَغَانِيهِ
وَأَوْحَيْتِ لِيَ الشِّعْرَ وَمَنْ غَيْرُكِ يُوحِيهِ ؟
وَنَجْوَى لَحْنِهِ البَاكِي وَأَنَّاتِ قَوَافِيهِ

* * *

قَطَعْنَا الْعُمْرَ فِي الْحُبِّ وَفِي غَمْرَةِ وَادِيهِ
فَلَمْ يَبْقَ لَنَا مِنْهُ سِوَى طَيْفٍ نُنَاجِيهِ

دمشق **أنور العطار**

ليلة النوروز

لعبد العزيز افندى عتيق

حينما ذَهَّبَ الأصيلُ مياه النيـ ل ، واختال فى الرياض جميلا
أبصرتنى أطوف حول حِماها سادرَ الخطوِ ، حائراً ، مخبولا
هتفتْ بى : إلىّ يا صاح أقبلْ أنا مَن قد بحثتَ عنها طويلا
ذاكَ وكرُ الهوى ، ألستَ تراه مثلما كانَ شاعرياً ظليلا ؟
ذاكَ روضى ، فقرَّ عيناً ونفساً ياحبيبى ، واجلسْ إلىَّ قليلا
واسقنى بالجمال والسحر شعراً شفقياً يُميت منى الغليلا

* * *

كيف جانبتَ روضكَ الفينانا أتسلّيتَ ؟ أم نسيت المكانا ؟
كلما طفتُ بالمكان أثارتْ وقفاتُ الوداع منّى الحنانا
وأرى القلب فى غيابك أمسى ياحبيبى موزّعاً حيرانا
أيها الغائب الذى خالط القلـ ـب هواه ، تعال نحيِ هوانا
خُذْ ذراعى إلى ذراعك واصعدْ ربوةَ الأمس ، واسقنى الألحانا
رُبَّ ليلٍ سهرتُه أتقلّى فيه وحدى ، وأشتكى الحرمانا

* * *

ها هو الناىُ حالماً بالأغانى فأعِدْها سحريّةَ الأنغام
ها هو الناى يا حبيب فؤادى غنّ للحبِ ، للنفوس الظوامى
فاذا ما شُغلتُ عنكَ بنفسى وبما هاج من هوى وضرام

فدعِ الناىَ جانباً ، وأدرْها قُبُلاتٍ من ثغركَ البسّام
ودع الربوةَ السحيقة تخفى أثرينا عن أعين الأقوام
ولنعش هاهنا كما نتمنى للأغانى ، للحب ، للالهام

* * *

وانظر الشمس ! هل شجتك اختلاجاً
وهى تخطو الى الفنــاء السريع ؟
كم أضاءت وجددت من حياة وتجلت فى كل أفق وسيع
ثم همّتْ فليس فى الكون إلا نائحٌ فى مواكب التشييع
ياحبيبى خلِّ الوقارَ وهيا نوقظ اللهو بعد طول هجوع
بالأغانى ، وبالحديث ، وبالشعـ ـر ، وبالسحر، والهوى والدموع
فغداً تذهب الحياة بشمسيْـ ـنا وتمضى بنا لغير رجوع !

* * *

وانظر البدر فى الفضاء سَبوحاً يغمر الكونَ وجهُه بالنور
أطلق السحرَ فى السماء وفى الأر ض ، فبتنا فى عالم مسحور !
لا نرى فيه غير ليلٍ وضوءٍ يبعث الشوق والهوى فى الصدور
ياحبيبى خذنى اليكَ وأنعشْ شفتينا بثغركَ المخمــور . .
قرّب البــدر بيننا ورعانا فتمتّعْ بساعة من سرور
ما غناء الساعات ، تمضى خُواء من لقاء ، أو رحلة ، أو سمير ؟

* * *

وارقب الزورق المقدسَ يبدو من بعيدٍ كالطائف الجوّالِ
كم عبرنا به الخضمّ وقد أغـ فى وجُلْنا به بكل مجـال
نوقظُ الموجةَ الصغيرة بالهمـ ـسِ ، فتبدى تثاؤب الأطفال
وأغانى المجداف تُضفى على اليمّ (م) رداءً من رهبــةٍ وجلال
ياحبيبى حان الوداع فهيا جئتَ نقضى حقّ الليالى الخوالى
كم حبتنا بصفوها ورعتنا نضّر الله وجهها من ليال

* * *

ورسا الزورق المقدسُ للشطْـ ـطِ فيا للصفاء يخطو الينا
ودعانا الملاحُ بالنغم العذْ ب ، فأورى بصوته مهجتينا
أيهذا الملاحُ أيّةَ ذكرى فوق هذا الخضم هجت لدينا ؟
قرّب الزورقَ المقدس كالأمـ ـس ، وهيءْ لنا به مجلسينا
وامض فى اليمّ حيث نسعد بالصفـ ـو ، ونُحيى فى ظله أملينا
طال شوقى الى المطاف بدنيا كم شجتنا وأطلقتْ خاطرينا !

* * *

قلتُ والبدرُ حالمٌ ، والدرارى حالماتٌ ، والكون وسنان صاح
يارجاءَ القلب الجريح — وما زا ل — أما آنَ أن تداوى جراحى ؟
بى ظماءٌ الى حديثك عذباً واشتياقٌ لوجهك الوضاح
قد سَهونا عن الحياة وبتنا فى محيطٍ من الطلاقة ضاح
فابعثى النور فى جوانب نفسى وارحمينى من وحشة الأرواح
شدّ ما ضقتُ بانفرادى وسُهدى واغترابى ، فى غُدوتى ورواحى !

* * *

أنا لولاكِ لم أعشْ فى حياةٍ ثقلتْ محملاً وساءت مَقرّا
ليس تصفو لنا ، وهيهات تصفو للذى ازداد بالحقائق خُبْرا
أنتِ جمّلتِها لعينى ونفسى وفؤادى ، فلست آلوكِ شكرا
فتعالَىْ نعشْ هنا فى حمى اليمّ (م) وننسى ما ساءنا ، أو سرّا
نتناغى كالطير فى كنف الدو ح ونطوى الساعات أنساً وبشرا
ذاك لبُّ الحياة ، بل ذاك أندى ما حوته الحياة برّاً وبحرا

* * *

وصحا الشوقُ عارماً فاذا هى فى جنونٍ ورعشةٍ قبلتنى
ثم ألقتْ برأسها فوق صدرى كالذى نام من مَلالٍ وأَيْنِ
وسرى الريح ليناً فاطمأنتْ واستراحتْ فى جانبى المطمئن
وشجاها الهوى فألقت بأذنى : يا حبيبى طاب المكان فغنِّ
غنِّ لى غنوةَ الربيع على اليمّ (م) ورَوِّ الفؤاد من كل لحنِ
فاحتضنتُ العود الحبيب الى النفـ ـس ، وأيقظته ورحت أغنى :

* * *

حينما يشرق الربيعْ فى سماء الحدائق
ونرى حسنه البديع فى وجوه الشقائق

* * *

سوف ألقاكِ هاهنا فوق ذا الزورق السبوحْ
حيث تصفو لنا المنى ويَقرُّ الهوى الجموحْ

* * *

يا مُحيّاً عبدْته مثلما يُعبدُ الإلـه
وجمالاً عشقته عشقَ من لا يرى سواه

* * *

كم تمنيت لو نكونْ فى حمى اليمّ مفردين
فى وقاءٍ عن العيونْ حيث نحيا كطائرين !

* * *

قدّر الله يا حبيبْ للغريبين بالتلاقْ
فمتى تسعدُ القلوب بلقاءٍ بلا افتراق ؟ !

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

بمناسبة ذكرى وفاة الامام

وقفة على دار الامام محمد عبده

بعين شمس

للشاعر الحاج محمد الهراوى

أظلاماً وأنت فى عين شمس … وعبوساً من بعد صفو وأنس ؟
كيف أصبحتِ يا مثابة غاد ؟ … كيف أمسيتِ يامنارة ممسى ؟
كنتِ والعهد منك غير بعيد … بيت مَلْك بغير تاج وكرسى
كنتِ للفضل والمكارم والنبـ … ـل جميعاً ، للناس من كل جنس
كنت للعلم ، والمعلم ، والطا … لب ، مجلى نهى ، ومعهد درس
عطلت هذه الدروس وكانت … ملء أهل الزمان فى كل حس
وانطوت ثم لا يزال صداها … بين صدر يرن فيه وطرس
فانظر الدار وهى قفر خلاء … بعد أهل ، فهل ترى من محس ؟
واسأل الرسم إن أصبت جواباً … فى كلام أو فى إشارة خرس
هيه يادار بعد أنس أجيبى … كيف أوحشت بين يوم وأمس ؟
لا تراكِ العيون من دمعها المـ … ـبل حزناً ، إلا بنظرة خلس
نظرات تعيد ذكرى إمام … كاد ينسى ، وصنعه غير منسى
حسدت مجدك الليالى فمالت … بعد لين عليك ميلة بأس
أقفرت هذه الربوع وأقوت … واستحالت الى معالم درس
لا يكاد البناء يقوى على الأر … ض ولا يثبت الجدار بلمس
ما بناكِ الذى بناكِ لزهى … بالذى شاد من قباب وأس
وهو لو شاء شاد عرشاً وفرشاً … من لجين ومن حرير الدمقس
إنما آثر التواضع حكماً … يبدى فيه من تواضع نفس
ليس يعنى بزخرف العيش حرٌّ … قنع العيش بين نفى وحبس
فأقام البناء من لبنات … خشنات أطرافها غير مُلس
لا يبالى وكل شىء سيبلى … ن يطوف البلى عليه بطمس
أنكر النفس ثم باع هواها … فى سبيل الأوطان بيعة بخس
ومضى يحمل الكريهة فرداً … مستهيناً بكل بأس وبؤس
مستعيناً بالله والحزم والعز … م ووحى الحجى وتدبير رأس
نفس حر تجملت بخلال … يتجافين عن صغار ورجس
خصه الله بالمواهب والرأ … ى بعيد المرام صلب المجس
رجل كان حين يقطع أمراً … ينتضاه من مخالب يأس
ليس يثنيه عن أياديه قوم … يصبغون الجميل صبغة ورس
فلقد عاش (عبده) فى زمان … جل من فيه أهل كيد ودسّ
حسدوا فيه نعمة الله فيهم … ورموه بكل منكر حدس
فاذا مات أيقنوا أى ركن … هدمته يد الضلال بفأس
قل لشعب حظ النوابغ منه … حظ سقراط حين أودى بكأس
تقتلون النبوغ حياً وتمضو … ن بُكيا عليه فى بطن رمس
أيها الناس ، ههنا قام بيت … فوق آثار خفرع وكيوبس
لم يكن من صروح هامان فرعو … ن ولا كان من حصون الفرس
فاذا ذل فالذى قد بناه … ليس من طينة الذليل الأخس
آه لو كان شكسبير بناه … أو بناه أخوه «هيجو» الفرنسى
لرأى الناس أى دار تجلت … واستحالت الى حظيرة قدس
أثر النابغين فى كل شعب … هو ميراث كل جيل وحرس
أيها الناس ههنا سر مجد … قبست منه نورها عين شمس
وهنا ههنا أشعة ذكرى … تستضىء العقول منها بقبس
فأقيموا البناء من قبل أن يأ … تى يوم يحول فيه للبس
واجمعوا فيه ما تشتت منه … بيد الدهر من متاع ولبس
واجعلوه للعلم داراً وللد … ين مناراً ، أو مرجعاً للتأسى
ينبرى للوفود منه خطيب … صامت القول فى بلاغة قُسّ
يوعظ العقل للحياة ويمضى … يفتح العين من عماء ونعس
ذاك من جانب الوفاء الى الشعـ … ـب نداء لصاحب غير نكس

محمد الهراوى

ورسا الزورق المقدس للشطْ … طِ ، فصاح الملاح : هيا ، فقمنا
ومشينا على بساط من العُشْـ … ـب ندىٍّ ، يهتز فى حيث سرنا
ووقفنا فى كل مجلس حُبٍّ … وادّكرنا من سحره ما ادكرنا
ثم ودّعتها وعدتُ وأحلا … مى إلى عالى الشقةِ مُعنَى
أسأل القلب: كيف ياقلب مرّت … ليلةُ الزورق الحبيب ، وأينا ؟
وأرانى مُردّداً فى حنين : … ليت أنا نعيدها ! ليت أنا ! !

ميت غمر **عبد العزيز عتيق**

بمناسبة ذكرى حافظ

شاعر النيل

بقلم الأديب أحمد عثمان عبد المجيد

لولا أن الخطب فى شاعر النيل هو خطب الشرق الذى كان الفقيد لساناً من ألسنته ، وعموداً من عمد نهضته ، وبطلاً من أبطال المحاماة عن حريمه ، والذود عن حقيقته ، وقائداً من قواده البسلاء الميامين ، وداعية فيه إلى الاخلاص فى الجهاد ، والاحسان فى البلاء ، ليظفر بحقه فى الحياة والسلطان . لولا أن الفقيد كان ذلك الرجل ماجل الخطب فيه وما فدح وما كان لمثلى أن يجاوز طوره ، ويصطنع مالا يطيق ، ويدفع نفسه دفعاً فى مزدحم الكرام الكاتبين عن حافظ شاعر النيل فيعرضها لشىء كثير من العنت والمشقة .

***

ومن أعجب العجب أن يريغ هذا القلم اللدن تلك السبيل برغم ما يتعاور حامله من تبلد القريحة ، وركود الذهن ، وأن يأسره ذكر شاعر النيل وحده فيتحدث عنه يوم مضى على وفاته الأربعون ، ثم العام ، وهاهوذا يتحدث عنه وقد تصرم العام الثانى على وفاته أمس .

وأعتقد أن حافظاً ماملك من نفسى إلا بما غلب عليه من إيثار الوطن وفدائه ، وغلب على شعره من الحماسة الوطنية والنزوع إلى الحرية ، والولوع بالاستقلال والسيادة . ولعل أقل مانجزى به حافظاً (رحمه الله) أن نكثر الحديث عنه ، وأن نقدمه إلى شعرائنا الذين آثروا أدب الصبابة واللذة ، وجنحوا بالأدب عن أن يكون وسيلة من وسائل إلهاب الشعوب المستضعفة وإنهاضها للمطالبة بالحقوق والدفاع عن الذمار ، وظنوا أن تزويق الحديث وتليين المعارض والمقاطع ووصف الغانيات ، وأسباب الترف من الأوليات التى يجب أن يعنى بها الأديب ، وأن يخلص لها الأدب .

لمثل هؤلاء يجب أن نقدم حافظاً مثلاً للأديب الذى عرف غاية الأدب السامية فجعل نتاجه الجم وقفاً عليها ، وجهاداً فى سبيلها ، ولم يحاول أن يسلك بالأدب مسلك أكثر أدبائنا الذين جحدوا حق الوطن عليهم ، وتأثروا طريقة الأدب العربى فى فنونه التى خلت إلا قليلاً جداً من الشعر الوطنى الذى يحدث عن آمال الشعوب ورغائبها .

لذلك لم يأل جهداً فى تسجيل ماللشرق من مفاخر ، عز بها حقبة من الزمن ، وما ينبعث لتحقيقه فى ايمان ثابت ، وجهاد صادق من مآرب وغايات . ضارباً له الأمثال ليشد أزره ، ويصحح عزيمته ، ويثير حفيظته ، ويزيد إيمانه بحقه ، واعتزازه بمجده

***

فتش فى آثار حافظ كلها يأخذ ببصرك هذا الطابع المجيد ، وتر أنه لم ينس الحديث عن مصر والشرق حتى فى مدائحه ، ومراثيه ، لأنه لم يمدح ولم يرث إلا الغطارفة الذين عرفهم وعرفتهم مصر مجاهدين فى سبيلها ، مخلصين فى الذود عنها ، بل لم ينسه فى خمرياته التى يستعبد الحديث عنها السمع والبصر واللب جميعاً ، ويأخذ بذمام الفكر فلا يدعه يجنح إلا إلى اللهو والخمر والقيان والندمان وما إليها .

لم يذهب حافظ فى أدبه ذلك المذهب إلا متأثراً بعصريته الصميمة ، وما أفاده من صحابة الأحرار من كره للاستعمار وضيق بالذل ، وما لقيه من عناد الانجليز بالسودان وما منى به بعد من بؤس وشدة .

كل هذه العوامل قربت بينه وبين الشعب ، فأحس منه ضعف النفوس ، وتزايل الوحدة ، وتردد المستضعف ، وخوف الذليل ، وأراد الاصلاح ما استطاع فاتخذ سبيله ليرضى بسعيه عن نفسه ، ويكون كما قال : —

لعمرك ما أرقت لغير مصر ... ومالى دونها أبداً مرام

وقوله :

انى لأحمل فى هواك صبابة ... يامصر قد خرجت عن الأطواق

لذلك لم يدع باباً من أبواب الجهاد الا ولجه ، فكان له فى سبيل الوطن والدين والأخلاق مواقف عز بها وبز ، وأقعد غيره عن أن يلحق به ويدانيه ، واصطنع فى جميعها الجرأة والصراحة وخلطها أحياناً بالتهكم اللاذع ، والسخرية المرة ، لتكون أبلغ فى التأثير وأبقى فى الآذان . واليك حديثه مع غادة اليابان مثلاً تر فيه كيف برز حافظ فى هذا المضمار ، وجمع إلى سلامة

الشعر وشرف المقصد دقة التصوير ، وسمو التصور : —

لا تلم كفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبى
أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا مابت أشكو النوبا
أمة قد فت فى ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا
وهى والاحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لاتبالى لعب القوم بها أم بها صرف الليالى لعبا

ثم يمضى يصف تفريط أمته . وعشقها الألقاب فى غير العلا ، وجهادها بالنفوس فى سبيل الرتب ، وتباغضها وتحاسدها ، وما إلى ذلك مما يقعد بالمصلحين ، ويثبط همم المجاهدين إلى أن يقول مخاطباً غادة اليابان : —

قلت والآلام تفرى مهجتى ويك ما تصنع فى الحرب الظبا
فسليني إنني مارستها وركبت الهول فيها مركبا
وتقحمت الردى فى غارة أسدل النقع عليها هيدبا
جال عزرائيل فى أنحائها تحت ذاك النقع يمشى الهيدبى
فدعيها للذى يعرفها والزمى ياظبية البان الخبا

وهو بذلك الحديث كله يمهد لما يريد أن يقدمه نصيحة للشباب ويجعله مثيراً لهممهم ، باعثاً لهم من مراقدهم ، فأى شاب يعرف للرجولة حقها يسمع حديث حافظ على لسان هذه الغادة فيرضى أن يسيغ الذلة ، ويقيم على الخسف الذى يراد به فيكون أحد الأذلين ؟

فأجابتني بصوت راعني وأرتني الظبي ليثاً أغلبا
إن قومى استعذبوا ورد الردى كيف تدعوني ألا أشربا
أنا يابانية لا أنثنى عن مرادى أو أذوق العطبا
أنا إن لم أحسن الرمى ولم تستطع كفاى تقليب الظبا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم وأواسى فى الوغى من نكبا

ولسنا فى حاجة إلى أن نقول : إن حافظاً قد بلغ فى هذه القصيدة مبلغاً من الاحسان يحسد عليه ، وأشرف بها على الغاية ، وأسمعت كلماته من به صمم

ولم يزل يتبع الصيحة المدوية أخرى أشد وأعلى ليستقيم له قياد النفوس . ويدفع الشباب المترف المنعم الذى سدر فى شهواته وغلا فى مباهجه ، ونسى حق الوطن عليه — الى مايجب أن يعمل له ويشغل نفسه به فانه

عار على ابن النيل سباق الورى مهما تقلب دهره أن يسبقا
فتدفقوا أسداً وصونوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدفقا
فمن البلية أن تباع وتشترى مصر وما فيها وألا تنطقا

تلك هى البلية البالغة ، والهوان الأكبر ، والفعلة النكراء ، فأحر برجال الغد المأمول أن يلموا الشعث ، ويرأبوا الصدع ، ويسعوا الى خير هذا الوطن المسكين سعياً ملاكه التضحية بالنفس والتفدية بالعزيز .

رجال الغد المأمول إن بلادكم تناشدكم بالله أن تتذكروا
فكونوا رجالاً عاملين أعزة وصونوا حمى أوطانكم تتحرروا
وياطالبي الدستور لاتسكنوا ولا تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله ولا ناله فى العالمين مقصر

***

لست أدرى إذ أقرأ لحافظ هذا وكثيراً غيره فأرى دعوته الى الثورة سافرة غير مقنعة ، وحفيظته على الاستعمار صريحة غير منكتمة ، ماذا يكون منه لو أفسح له القانون قليلاً فى الحرية ؟ وأى شىء بعد هذا نرتقبه من مجاهد ، ونرجوه من حر . ؟

إن من يعرف صرامة القانون إذ ذاك وما رمى اليه المشترع الانجليزى من كبت الشعور ، والتفزيع والكيد للاحرار ، ليعتقد أن حافظاً آثر عنت القانون ، وشدته ليقضى حاجة نفسه ، وحاجة أمته فى ذلك الوقت العصيب الذى سعى فيه كثير من الخاصة الى رجال الاستعمار متزلفين مؤثرين أنفسهم على الوطن .

فهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو الى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

لله درك ياحافظ ! لقد جاهدت والغمرات من حولك منكرات والقوم مشغولون عنك بذات نفوسهم . فما فنيت عزيمتك ولا وهى صبرك ، ولا دفعك ذلك الى اليأس إلا حين ترجو الالهاب والتهييج ، فما أجمله يأساً يوقظ الشعور ويحفز الغافل الى النداء بالحقوق

حطمت اليراع فلا تعجبي وعفت البيان فلا تعتبي
فما أنت يامصر دار الأديب وما أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يامصر من كاتب أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذليني لهذا السكوت فقد ضاق منك ما ضاق بي

أيعجبني منـك يومَ الوفاق   سكوت الجماد ، ولعب الصبي
وكم غضب الناس من قبلنا   لسلب الحقوق ولم نغضب

غضب الناس لحقوقهم فاستردوها ، ونمنا نحن عن حقوقنا وهى ملء الأرض ، وشغلنا عن مجدنا الدابر وهو ملء التاريخ ، ورضينا بالدون من العيش قسما وحظاً وقد

كنا قلادة جيد الدهر فانفرطت   وفى يمين العلا كنا رياحينا
كانت منازلنا فى العز شامخة   لاتشرق الشمس إلا فى مغانينا
وكان أقصى مُنى نهر المجرة لو   من مائه مزجت أقداح ساقينا
والشهب لو أنها كانت مسخرة   لرجم من كان يبدو من أعادينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا   شزراً وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا جاه ولا حسب   ولا صديق ، ولا خل يواسينا

فى هذه الأبيات وفى كثير غيرها يذكرنا حافظ بسلطان الشرق وملكه ، وعلمه وفلسفته ، وأيامه الخالية ، ثم بعبوديته وفقره المادى والأدبى ليبعث من ألقى السمع الى النهوض ، وينبه الغافل الكسل الى ماله من حقوق مسلوبة

وليس من شك فى أن شاعرنا قد أدى بقصائده هذه ما وجب عليه كمصرى صميم إن لم يكن زاد وأربى ، وأن الشعب قد أحسه تذكير بنعمى عريضة تحولت أبؤساً ، وعز باهر آض ذلاً . ولكن نفسه الكبيرة ما كانت لترضى بهذه التضحية الحق ، فلولا صرامة القانون لأرتنا عجباً ، فمثلها لا يقنع بما دون النجوم .

متى أرى النيل لا تصفو موارده   لغير مرتقب لله مرتهب
فقد غدت مصر فى حال اذا ذكرت   جادت دموعى لها باللؤلؤ الرطب
إذا نطقت فقاع السجن متكئ   وان سكت فان النفس لم تطب

وكما لم يحمد حافظ جهاده وبلاءه لم يحمد للشباب نهوضهم المقدور ، وجهادهم المحدود ، وهو يريدهم أسوداً ضارية لا ترتد عن الغاية أو تبيد ، فأنحى عليهم باللائمة وأغلظ لهم فى القول ، وقرعهم وتحدى رجولتهم فقال :

أنابتـة العصر إن الغريب   مجـد بمصر فلا تلعبى
يقولون فى النشء خير لنا   وللنشء شر من الأجنبى
أفى الأزبكية مثوى البنين   وبين المساجد مثوى الأب
وكم ذا بمصر من المضحكات   كما قال فيها أبو الطيب

هذه النابتة التى راضها حافظ على التضحية فارتاضت بعـد شماس ، وأدبها ذلك الأدب الجميل وطالما أوضعت فى اللهو وجنحت الى الأثرة فجنت على الأمة ، هى التى تسعى اليوم غير وانية ، وتمضى غير متريثة ، لا يشغلها عن جهادها الشريف ما يُمنى لها من كيد ، وما يراد بها من هون ، لقد علمها بالصراحة ، وعرض عليها شر ما فيها من الخصال لتتوقاه ، وكان عليها حديد اللسان ان ترددت حين العزم وتقاعست عند النائبة

حسبى هذه الصور البارعة التى تدل دلالة واضحة على أن حافظاً — أحسن الله جزاءه — كان شاعر الوطنية الثائرة ، لم يقدع ثورته الخوف ، ولم يأسر قلمه التزلف والرياء ، ولم يخالف بين قوله وفعله

وستظل هذه الناحية من شعر حافظ شغل الباحثين ما دام الحديث عنها يمتد ويمتد فلا يقوم بالايفاء فيه الاطناب المطنب ، وما دامت النفوس الألمة تستروح برد الراحة فى دراسة هذه الآثار التى تحدث عن أشهى أمنية من أمانيها ، وما دام ـ حافظ ـ نفسه يأبى أن يحتفل بغير هذه الناحية ، ويقول ما معناه « إن من قضى شبابه فى الجيش ، ثم انغمس بعد تسريحه فى شعر الوطنية ؛ هيهات أن يجد متسعاً لما وراء ذلك » وأختتم الكلام بعرض مختار من إحدى قصائده فى داهيـة دنشواى الدهياء ، وقد صاغها من حسرات نفسه وآلام شعبه ، ورثى فيهـا العواطف الشريفة ـ يقتلها حب الاستعمار فى نفوس أهله ـ فجاءت طرازاً وحدها فى قوة التأثير وجمال النظم قال :

خفضوا جيشكم ، وناموا هنيئاً   وابتغوا صيدكم ، وجوبوا البلادا
واذا أعوزتكم ذات طوق   بين تلك الربى فصيدوا العبادا
انما نحن والحمام سواء   لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ولكن   أرشدونا إذا ضللنا الرشادا

ثم يقف بعدُ من المستعمر موقف الخصم العنيد ، فلا يدع له حجة ولا ينجيه من التثريب والملامة :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو   أقصاصاً أردتمُ أم كيادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو   أنفوساً أصبتم أم جمادا ؟
ليت شعرى أتلك محكمة التفـ   ـتيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟
كيف يحلو من القوى التشفى   فى ضعيف ألقى اليـه القيادا ؟

ثم يمضى بعدُ ينفث حسراته وزفراته حتى ينتهى الى تقريع

أبناء مصر الذين ينقلبون حرباً عليها ، ويكونون عوناً للمستعمر على خضد شوكتها ؛ ويخلص من ذلك الى قوله وقد أنكر تصرف هؤلاء الأعيان وزرى عليه :

لاجرى النيل فى نواحيك يامصر ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبت يامصر فأضحى عليك شوكاً قتادا
أنت أنبت ناعقاً قام بالأمس فأدمى القلوب والأكبادا
إيه يا مدره القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

***

هذه الروح القوية التى استبانت فيما أوردنا من شواهد هى التى صدر عنها حافظ فى جهاده الوطنى الذى صار من أجله شاعر النيل غير مدافع ولا منازع .

وما زال – رحمه الله – يغذى الحركة الوطنية ، ويشيد بها حتى ألقى عصاه بدار الكتب ، فصرم بها زماناً لا ينشدنا إلا لماما .

وما كان للنفوس التى خالطها حبه ، وغذاها أدبه ، وطبعت على أن تسمع صوته متصلاً لا ينقطع ، أن تسكن الى تلك الحال ، وأن ترضى بذلك القليل يأتيها منجما فى أوقات متباعدة .

فلما ترك – رحمه الله – المنصب محالاً الى الراحة والدعة ، أملت خيراً واستشرقت وأنست الى مقطوعاته التى كان ينظمها اليوم بعد اليوم ، ولكن ماهى إلا جولة أو جولتان حتى رفع القلم ، وطوى الأثر ، وودعنا حافظ

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أبى البؤس الذى ألح على حافظ حياته أن يدعه بعد وفاته ، فكفرت الأمة بأياديه عليها ، ولم تعرف لذكراه حقها ، وكان أقل مايجب عليها لمن عاش حياته مجاهداً فى سبيلها ، مسبحاً باسمها ، أن تجعل يوم وفاته أحد أيامها الخالدات ، تهرع فيه الى تمجيد ذكره وإعلاء قدره ، وأن تنشر صحيفة جهاده للأدباء ليتأثروه فيه ويعملوا على شاكلته .

وليس هذا وحده هو كل ما أصاب حافظاً من بؤس بعد وفاته ، فان خلصاءه الذين عاشروه ولابسوه ولزمهم بذلك ما يجب على الصديق للصديق ، قد نفضوا أيديهم مما تعاهدوا عليه إثر وفاته واجتمعوا من أجله ، وقد كان فيه قليل من كثير جداً يجب عليهم لذلك الشاعر الصديق الذى أضحى حظه بين هؤلاء الصفوة الأنساء أو النسيان وكلاهما شر .

وبعد ، فتلك كلمة فيها إيجاز وقصور ، لم أرد فيها كشفاً عن فضل مستور ، وبياناً لقدر منكور ، ولكني أردت أن أؤدى لشاعر النيل بعض ما وجب على بالأخذ عنه ، والانتفاع بآثاره . فان أك قد قاربت ما أردت فحسبي ، وإلا أكن فالمجتهد يعذر ؟!

أحمد عمارة عبد المجيد

بين الشك والإلحاد

الشاعر الايطالى «ليوپاردى»*

للأستاذ خليل هنداوى

— ٢ —

أعجب ليوپاردى بالموت والفناء ، فقال فى مقطوعة له :

[أيها الموت الرحيم الذى لم أزل أدعوه إلىَّ منذ تألق صباى : تعال أغلق إلى الأبد عينيَّ ، فقد طرحت بعيداً عنى كل أمل خادع يتعلل به العالم ، ويلهو كالطفل . أنا لارجاء لى إلا بك ، ولن أرتقب إلا النهار الذى أرقد فيه مسنداً جبينى على صدرك الطاهر]

وهكذا أصبحت نفسه لايشبعها لون من ألوان الحياة وآمالها ، لا الحب ولا زهوه ، ولا الأمل وآفاقه ؛ لا يشبعها ولا يطفىء رغائبها إلا لقاء الموت .

قد تسمع هذه اللهجة من غير ليوپاردى فتصد عنها ، ولكنك تسمعها من هذا القلب الخافق والروح المعذب فتوقظ نفسك الهاجعة وتهيج قلبك الهامد ، لأن اللهجة التى ينطق بها الشاعر ليست لهجة خاصة ، وإنما هى لهجة الانسانية التى تأتى من حيث لاتعلم ، وتنطلق إلى حيث لاتدرى .

يقول ليوپاردى : إن الجميل هو عدو الحقيق ، ولكن هذا الجمال الخادع هو — عندى — خير من الحقائق الأرضية الدنيئة . ألا فلنهذب الأشياء التى تفسح ساحات الخيال ، فهى اجدى نفعاً على الناس لأنها تبعث على النسيان . إن الآداب هى رفيعة المقام ، وهى القائدة إلى المثل العليا ، والدرس يبعث على التعزى ، وهو يبهج ويلهى النفس . أما الحب فهو نعمة لأنه يتصور ويتأمل . أما الأمل فهو الأريج الفواح الذى يعطر مسارب كل مكان . وإذا كنت أعتقد أن الموت هو خير هذه الأشياء ، فلأنه يفاجىء الانسان المسترسل فى أوهامه ، لا يقتل هذه الأوهام إلا بقضائه على الحياة ؛ لماذا تصلح حياتنا ؟ هل تصلح إلا للازدراء ؟

— ٥ —

ومن الغريب أن ترى ليوپاردى الكاتب يناقض ليوپاردى الشاعر ، فرسائله لاتكاد تخلو من ذكر الله وهو فى شعره جاحد لوجوده ، يقول فى إحدى رسالاته « والأجل الذى كتبه الله لى لما يحن ! ولكننى أرجو من الآلام التى أنهكتنى أن تسوقني إلى الراحة الخالدة التى أطلبها كل يوم ، هرباً من العذاب الذى أضوانى . »

كان ليوپاردى يجحد وجود العناية الآلهية ، والآن يثبتها لأنه يحس وجودها بالضرورة التى تفرض وجودها . يقول الشقى « إذا كان هنالك كائن فى السماء أو على الأرض أو فى قاع البحار ، فلا أقول عنه إنه رحيم ، ولكنه شاهد على عذابى »

كان ليوپاردى يحتقر البراعة ، وينسى الأسماء الخالدة اللامعة وها هو الآن فى ذات مساء ، فى مدينة (رومة) نرقى ربوة (سانت أونوفريو) حيث قضى (لوتاس) نحبه ، ينحنى إزاء قبر هذا الشاعر الكبير ، ويستوى تحت ظلال الشجرة التى ألف الشاعر أن يفىء إليها متأملاً فى غروب الشمس ، هنالك يقول ليوپاردى لاشىء جميل على الأرض ؛ عظمة البراعة التى تعيش وتخلد هى فوق كل عظمة . وكان يقول عن الحب إنه حلم فارغ ، غير خليق به أن يقلق نفساً صافية ، وها هو ذا الآن يجعل من الحب رسول السعادة الحقيقية ، ترسله الآلهة إلى قلوب بنى الانسان . (فهو إذا هبط الأرض تحرى عن أشرف القلوب وأطهرها ، وبث فيها من روحه وعذوبته . حتى ليحس صاحب الحب أن فى قلبه روحاً غريبة تثنيه عن العالم) وهو الكاتب إلى أخيه (بالله أجبنى . . . أنا فى حاجة إلى الحب . . . الحب . . . . النار . . . الهيام . . . الحياة) وهو الذى يحدث عن صداقة أنقذته ، وبدلت بؤسه هناء وجعلته يؤمن بأن فى الحياة أفراحاً كان يحسبها مستحيلة .

كان ليوپاردى يساير مذهب الجاحدين وجود المشاعر السامية فى الانسان ، والآن أصبحت هذه الأكاذيب عنده أسمى

* انظر العدد ٥٣ ص ١١٥٠

شيء فى أخلاق الانسان ، تدل على شيء هو أعظم من الرداء الترابى ، فيصرف وجهه عنّ الأرض ليتأمل فى عظمة الفضاء الشاسع والعوالم السابحة فيه ، فيرى كل شيء صغيراً حقيراً عند هذه النفس ، فيعرف أن النفس هى أوسع بخاطراتها وتأملاتها من كل عالم ، فتشكو هذا النقص وتحس الفراغ والسأم ؟ أليس هذا بما فيه برهاناً على شرف الطبيعة الانسانية ؟

هذه المشادة هى المعركة التى تقوم بين القلب والروح ، ولكن هذه المعركة التى تتخذ من صدر (ليوپاردى) ميداناً عنيفاً هى معركة دائمة لا انتهاء لها . يحفزها الألم ويسعر ضرامها الشقاء ذلك الألم الذى نحا بالشاعر إلى هذه الوجهة العابسة من فلسفة الشك ، وطبيعى أن تكون هذه الوجهة غيرها فيما لو قيّضت المقادير لهذا الشاعر حياة ناعمة وعيشاً رغداً ؛ اذاً لكسبت الحياة متفائلاً جديداً يشدو بمحاسنها ويلهج بالثناء على جمالها ، وسيان عندها شاعر بكى وشاعر شدا :

فلله ما أظلم الفلسفة إذا كان قليل من هناء يبيض وجهها فيبيض العالم ، وقليل من شقاء يسوّد وجهها فاذا العالم كله ظلمات بعضها فوق بعض . والحقيقة — وأجدر بالحقيقة أن تكون وراء هناء الانسان ووراء شقائه ، ولكن قل لى من الذى يستطيع أن يتجرد من جميع هذه الظواهر ، ومن ذا الذى يقدر على أن يضمن سلامة عقله إذا جاع بطنه ، وأن يبقى على هنائه إذا عضه ألم أو فرّ منه أمل

— ٦ —

وهكذا ظل ليوپاردى تتشاطر قلبه نوازع مختلفة ، وينحط على جسده الداء إثر الداء ، يحاول أن يهدىء ثائرتها عنه بتنقله من رومة إلى بولونيا ، ومن بولونيا إلى فلورنسا ، إلى نابولى ، والداء لايزيد إلا تمكناً منه ، حتى آثر الشاعر الموت لنفسه على ان يذلها بسبب الحاجة ، وقد دفعه ألمه هذا للكتابة إلى والده (. . . ان مارتبته لى لا يكفى . . . على أننى أريد ألاّ أحيا كما يحيا الناس ، ولكن الموت هو أفضل عندى ، ولكن الموت يجب ارتقاب أجله ، فلو كان الأمر بيدى لما طلبت اليك — والله شهيد على — أن تمنحني شيئاً .)

تعرف فى نابولى إلى صديقه (رانيرى) ذلك الصديق الذى أخلص له كل الاخلاص ، وظل أميناً له حتى اللحظة التى غادر فيها ليوپاردى الوجود ، وفى نابولى اعتزل الشاعر الناس ، فلا يبصر منهم أحداً ، ولا يسمع عنهم شيئاً ، كأنما عزلته هذه هى عزلة الموت . ينطبق عليه فيها قوله « اصبحت جزعاً يفكر ويقاسى العذاب ، هو لا يزجى حياته إلا فى التفكير ، ولا يشغله فى عزلته إلاّ التأمل . إذا رآه الناظر يخطر بين خرائب (بومباى) عند الغروب ، تمثل شبحاً قديماً يزحف بين الخرائب يرثى حظها وحظ نفسه

وجد على قمة جبل تنفث مائعاً نارياً نبتة ضعيفة تحاول أن تنزل فيها جذورها ، فمثل الشاعر نفسه بالنبتة الحقيرة وناجاها قائلاً : [وأنت أيضاً ، ستخضعين لقوة النار ، وستنحنين تحت الأثقال ، ولكنك لن تنحني جبانة أمام الظالم ، ولن تلتفتى إلى السماء بكبرياء أهوج]

يطغى على ليوپاردى هذا الشك العنيف ، فينكر الخلود ويعلن قبل موته أن هذه الفلسفة البائسة — كما يدعوها — ليست نتيجة ألمه وشقائه ، ولكن نتيجة اعتقاد وايمان ، ويؤلف مقطوعة الموت والحب ، معنوناً اياها ببيت للشاعر (لمينادر) (هنالك يموت شاباً من تحبه الآلهة)

وإزاء هذا التناقض الذى شاهدناه بين قصائده ورسائله كتب أيضاً (وداعاً ياصديقى العزيز . . انني أحس فى نفسى رغبة هائجة لعناقك ، ولكن كيف ؟ وفى أى موطن أستطيع ؟ أخاف جداً ألا يكون هذا بقدر طول حديقة (أسفوريل) . حدثني عن دروسك ، وأحببنى دائماً ، وداعاً لك من كل قلبى)

انتشرت الكوليرا فى نابولى وكثرت ضحاياها ، فنقله (رانيني) صديقه الحميم إلى (بورتيسى) . وفى الرابع عشر من يونيو عام ١٨٣٩ اخذت الشاعر نوبة اغماء قوية تزايلت لها أعضاؤه ، ولم يكن عند الشاعر إلا صديقه وأخت صديقه ، كانت تمسح العرق المتصبب من جبين العليل ، وكان (رانيني) يساعده بحركات رياضية على التنفس ، وكل هذا لم يغنه شيئاً . فعاد بعد

[البقية على صفحة ١٢٣٧]

العلوم

تطور فكرة النظام الشمسى عند اليونان

بقلم فرح رفيدى

. . . هذه أول مقالة من عدة مقالات فى تطور فكرة النظام الشمسى عند اليونان وعند الكنيسة فى العصور الوسطى ، وعند العرب ، ثم الانقلاب الأخير الذى حدث على عهد كوبرنيكس وجاليليو .

وقفت فى مساء ليلة من ليالى الصيف متأملاً انحدار الشمس الى المغرب انحداراً بطيئاً ، وكان الشفق بألوانه ممتعاً للأنظار ، محركا للنفوس . لكني لم أبال بجمال المنظر أكثر من أن الشمس ستتوارى عنى وراء الجبال بعد بضع دقائق

وأجهدت نفسى فى تلك الآونة لأرى الشمس واقفة وأشعر نفسى متحركاً مع الأرض ، لكن جهدى ذهب عبثاً ، إذ مازلت أرى الشمس تهوى مسرعة لتختفى عن ناظرى ، والشفق يزداد احمراراً كلما دنت من المغيب . فبالرغم عنى لم أرها إلا متحركة وبالرغم عن كل شيء لم نلاحظ الشمس تقف ثانية واحدة فى مجراها اليومى ، فهى أبداً فى كل يوم نشاهدها صباحاً فى المشرق ، ترتقى رويداً فى هذه القبة الزرقاء ، الى أن تصل أوجها فى منتصف النهار ، ثم تأخذ فى الانحدار والاختفاء وراء الأفق الغربى ، فتضيء هناك ما كان مظلماً ، وتبقى خلفها الظلمة ترقبها النجوم بأعين ساحرة متلألئة .

وقد نشاهد القمر أحياناً يظهر بعد اختفاء الشمس ، فيسلك مسلكها ، ويتبع خطاها واحدة واحدة ، الى أن يتدرج فى انحداره وراء الجبال أو وراء البحار . ففى أثناء هذه الدورة العظيمة من الشمس ، أو هذا الانقلاب الخطير المتعاقب من ليل ونهار ، من يفكر أو يشعر أنه دائر حول محور الأرض بسرعة تقرب من الألف ميل فى الساعة ، وأنه فى اثنتى عشرة ساعة ينقلب أسفله الى أعلاه وأعلاه الى أسفله ؟ وكيف يكون هذا الدوران السريع ولا نرى البنايات تتهدم ، والأشجار تتساقط ، والمياه تتطاير فى الفضاء والناس تقع وتقوم ؟ . إن هذا الدوران حركة عنيفة قادرة على تفتيت الأرض وهدمها . فبما أن كل هذه الأشياء لا تحدث ، فالأرض إذن ثابتة لا تتحرك فى وسط هذه القبة المستديرة . نعم ذلك مااعتقده اليونان الاقدمون وجاهر به بطليموس فى القرن الثانى بعد الميلاد . فثبات الأرض فى مركزها كان النقطة الاساسية فى النظام اليونانى القديم .

لنقف الآن قليلاً ، ولنتصور أنفسنا فى يوم ٢٢ يوليو عند ما يكون النهار على أطوله ، والشمس مشرقة تماماً على الخط المار بين الغرب والشرق منا . لندع الشمس تدر حول الأرض كعادتها ونحن نرقبها كل يوم من مسقطها ونعين موضعها بين الجبال أو ان شئنا بين النجوم ، ، فبعد أيام نرى أن الخط المار بنا وبها قد بدأ فى الانحراف قليلاً عن خط الشرق والغرب ، ولا يزال الخط فى الانحراف ولا تزال الشمس متنقلة بين النجوم الى أن يأتى الخريف بعد الصيف الحار ، ويقترب الشتاء ببرده القارس ، ويأتى يوم ٢٢ ديسمبر حينما يكون النهار على أقصره ، فيبلغ الخط منتهى انحرافه ، ويبدأ بالرجوع الى مكانه الأول . ثم لحق الربيع الشتاء ، وما كاد يطرب بنضارته وجماله الشعراء حتى يباغته الصيف بحره وجفافه ، ويأتى يوم ٢٢ يوليو حيث يرجع الخط لمكانه الأول . وذلك بعد أن أتمت الشمس مسيرها بين النجوم . لأن ذلك كان مااعتقده ارسطو وبطليموس فى النظام الكونى وعللاه بقولهما : إنه لو كانت حركة الشمس هذه ظاهرية فقط ومسببة عن حركة فى الأرض فى جهة معكوسة ، لكنا رأينا النجوم أيضاً تسير بهذه الحركة الظاهرية مع الشمس ، وبما أنا لا نلاحظ أى انتقال أو تغيير فى النجوم فالأرض إذن ثابتة لا محالة ، وأى تغيير قد يحدث فى بعض هذه اللوامع فى الليل فانه راجع الى

الأجرام نفسها لا الى حركة الأرض أو دورانها . وهذا التعبير الذى أذاعه المعلم الأول ارسطو تعبير منطق يسلم به العقل ، ولذلك ظل معتقداً راسخاً فى قلوب الناس قروناً عديدة

أول ما يلاحظ الناظر فى الليل الى السماء هو الاختلاف البيّن فى لمعان النجوم ، فاستدل اليونان من ذلك على أن النجوم الأشد لمعاناً هى أقرب الى الأرض من غيرها ، وقد وجدوا أن من غريب أمر بعض هذه النجوم ، أنها تتنقل من مكان الى آخر ، لذلك سميت بالنجوم السيارة Blanets ، فبثوا العيون وراءها ترصدها أينما حلت ، واعتقد أرسطو أن هذه النجوم السيارة إن هى إلا أجسام طبيعية تدفعها الى الحركة أرواح حالة فيها . وبما أن الأرواح تسير بقوة الآله الأكبر ، والكاهن هو الواسطة بين الله والانسان ، فالكاهن إذن عالم بأمر هذه النجوم . فادعى الكاهن هذه المعرفة فأخذ يدرس حركاتها ، فلما لم يعلم بسر حركتها ظن أن الروح تحركها ، ولما رآها تسير بنظام لا يدركه قال هى تسير بلا نظام ، وأن بعضها يسلك على حسب حظ الواحد وسعده ، فمنها ما يتحرك لخير ومنها يتحرك لشر . ومن ذلك انتشر الاعتقاد بمعرفة حظوظ الناس من معرفة حركات النجوم ، فصار العالم بالأرواح عالماً بالنجوم ومسالكها ، وأصبح صاحب الدين فى الدنيا وهو صاحب العلم أيضاً ، ولم يمكن عندئذ التمييز بين الاثنين .

عرف اليونان من الكواكب خمسة غير الشمس والقمر . عرفوا : (١) الزهرة ، وهى الكوكب المتألق فى السماء عند الصباح أو عند المساء ، وقد دعاها الرومان إلـهة الحب لجمالها وافتتانهم بها ؛ وليس من الغريب أن يقرن نابليون حظه بها ، إذ قال لأحد جنوده ذات ليلة : « انظر ! هذه نجمتى ، ما دامت متألقة فلا شك فى نجاحى » .

(٢) عطارد ، رسول الآلهة ، يُرى أحياناً فى الشفق فقط بعد مغيب الشمس ، يلبث قليلاً ثم يتبعها ، وهو كالزهرة يرى أيضاً فى الصباح .

(٣) المريخ ، ونراه أحياناً متألقاً ، وأخرى ضعيف الاشعاع ، أحمر اللون ، وهو إلـه الحرب عند الاغريق .

(٤) المشترى ، إلـه الآلهة ، وهو كزوس عند اليونان ، وثانى الكواكب بشدة لمعانه ، فلا عجب إن عرفه الناس من زمن قديم .

(٥) زحل ، المعروف ببطء حركته بين النجوم الثوابت ، عرفه الأقدمون كأبعد سيار عن الأرض .

ليس لنا أن نبين الأبحاث التى قام بها علماء اليونان فى علمى الهيئة والنجوم ، ولكن المهم الآن أن نعرف بعض من قاموا بتأسيس فكرة النظام الشمسى التى عرفت بالنظام البطليموسى ، والتى ما كانت إلا تعديلاً لما اعتقده أرسطو العظيم فى هذا الكون العجيب .

فى سنة ٥٣٢ ق . م قام فيثاغورس Pithagoras وأنشأ أخوية دينية كان لها اعتقادها الخاص فى كروية الأرض ، وكان هو أول من فرض حركة الأرض حول الشمس ، لكن أرسطو رفض هذا الفرض لعدم ظهور دواع تؤيده ، وكان أيضاً هبارخس Hipparchus أول من أظهر استدارة فلكى الشمس والقمر حول الأرض .

وفى سنة ٣٧٠ ق . م ، أظهر يودكسس فكرة الكرات المتراكزة ، فبنى على هذه الفكرة من بعده أرسطو ورؤساء الكنيسة فى العصور الوسطى .

وفى القرن الرابع قبل الميلاد قام المعلم الأول أرسطو ، الذى تلقى على أفلاطون فيلسوف ذلك العصر ، وجمع ورتب التعاليم اليونانية بعد أن حللها وناقشها مع تلاميذه ، وقاسها بمقياس العقل والمنطق ، وعزا الحوادث والتغيرات فى النجوم الى مسبباتها الظاهرة ، وخلّف للملأ خلاصة التعاليم اليونانية منقحة بفلسفته المنطقية ، فأكبر العالم هذه العظمة فيه ، فمال على كتبه ومؤلفاته يدرسها ، فوجدها غاية المنطق ، وسداد الرأى ، وقوة الدليل ، فاقتنع وآمن بها إيماناً ذهب بالشك فى صحتها من قلبه

لم يكتف أرسطو بأن جعل الأرض ثابتة ، بل تصور النظام الكونى كله مؤلفاً من كريات مستديرة الشكل فى أحجام مختلفة والواحدة فى جوف الأخرى ؛ وعلى هذه الكرات جعل الأجرام السماوية تدور حول الأرض .

وقد حسب النجوم الثوابت كلها على أبعاد متساوية من الأرض ، لذلك جعلها على سطح كرة واحدة ، وقد علل اختلاف الأضواء المنبعثة من بعض السيارات باختلاف بعدها عن الأرض . ولما زادت العناية بمراقبة النجوم ، ودقت ملاحظاتهم لها ، تبينوا

اختلافات كثيرة فى حركاتها ، لم يقدروا على تعليلها بكرة واحدة ، فزادوا عليها كرات ، وقالوا إن هذه الحركة الظاهرة ما هى إلا مجموع حركات دائرية على كرات مختلفة ، وزاد أرسطو على هذه الكرات اثنتين وعشرين كرة ، كانت سبباً فى تعقيد النظام اليونانى بدلاً من تسهيله .

الأسم الأكبر الذى كثيراً مانصادفه فى كتابات اليونان القديمة فى علوم الهيئة وبين مؤلفات العصور الوسطى ، وفى الكتب العربية المنقولة عن اليونانية هو بطليموس (Btolemy) . مؤلف كتاب الماجسطى الذى ترجمه الى العربية الحجاج بن يوسف بن مطر سنة ٧٨٦ م . وكان لهذا الكتاب المقام الأول بعد ارسطو لمدة أربعة عشر قرناً .

عاش بطليموس من سنة ١٠٠ الى سنة ١٧٠ ب . م . وكان مولده على أيام الأمبراطور هدريان ، وكان مقيماً طول مدته فى الاسكندرية ، وهو معدود من أشهر رياضيى ذلك العصر . وكتابه الماجسطى يحوى كثيراً من العلوم الرياضية والجغرافية عن أبحاثه فى علمى الهيئة والنجوم . وقد وافق هبارخس فى تراكز الأجرام السماوية ودورانها حول الكرة الأرضية ، ونزع فكرة الكرات فكرة إرسطو ، وأدخل نظام الدوائر الصغيرة (epicycles) وهو النظام الذى عرف باسمه من بعده ، وهو أن الكواكب تدور فى دوائر مراكزها تدور فى دوائر أكبر منها حول الأرض .

بهذه الفكرة تمكن بطليموس من تعليل حركات الكواكب السيارة فى السماء ذهاباً وايابا ، ومن تعليل ثباتها مدة من الزمن عند تغييرها من ذهاب الى اياب وبالعكس . فقد قال إن حركة الذهاب والاياب مسببة عن كون حركة الكوكب فى جهة عمودية لاتجاه خط النظر (line of sight) . وثبات الكوكب مسبب عن كون حركة الكوكب فى اتجاه واحد مع خط النظر ، وذلك كما يلاحظ فى حركة اقتراب أو ابتعاد الكوكب عن الأرض ، إذ يعجز الانسان عن ادراك الحركة فيظن صاحبها ثابتاً .

وأما انحراف السيارات عن دائرة البروج (ecliptic) أو فلك الشمس فهو ناتج عن ميلان سطوح الدوائر الصغيرة عن سطح الدائرة الكبيرة .

وهذا النظام الكونى نظام بطليموس وهبارخس ، وان كان مرتكزاً على جعل الأرض ثابتة بالنسبة الى عوالم النجوم حولها فان الأرصادات الدقيقة للحركات الظاهرية لم تذهب قط سدى ، وهى من الأهمية بمكان فى تقدم علم الهيئة الحديث . والحقيقة فى فكرة النظام البطليموسى أنها لم تبتدىء مع بطليموس ، فأول من عرض هذه الفكرة كان ابولونيوس (Apollonius) فى القرن الثالث قبل الميلاد ، فقبلها هبارخس فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ولما أتى بطليموس فى القرن الثانى بعد الميلاد ، توسع فيها وزاد عليها وشرحها شرحاً وافياً فى كتابه الماجسطى ، وظلت أساس معتقد الناس والكنيسة فى النظام الكونى أربعة عشر قرناً .

فرج رفيدى

ليو پاردى

[بقية المنشور على صفحة ١٢٣٤]

لأى إلى وعيه واتسعت عيناه ، ونظر إلى صديقه نظرة عميقة ، وقال له بلهجة يمازجها التنهد : (لن أراك أبداً) ثم انقطعت أنفاسه وهمد قلبه الهمدة الأخيرة

ووورى جثمانه فى الكنيسة الصغيرة (سانت فينال) حيث يرقد غير بعيد عنه رفات الشاعر الأكبر (ڤرجيل) . فيا لله من هذا الحظ الذى جمع بين لحدى هذين الشاعرين العظيمين ، وهما على قربى فى الوطن والفكر والشعر . قد انشق الاثنان من نبعة واحدة ، وانطلقا ليرقدا فى رقعة واحدة . كلاهما تألم ، وكلاهما لقى حتفه فى ميعة الصبا ، وكلاهما أيس من العالم الثانى ، وود أن ينتقم من المقادير ويثأر لشقائه فقالا : « هى المقادير ! ما أوجدت الانسان ليحيا ، وانما أوجدته ليموت »

وهذه الفكرة التى تجعل الموت غاية الوجود قد رددها ليوپاردى فى مقطوعته (انشودة الديك)

(يخيل الىّ أن المآل الوحيد لكل موجود هو الموت ، لن يموت شىء لم يوجد ، ولن يولد شىء من العدم .

يتجه كل مخلوق بأعماله وآماله إلى السعادة .

فيسعى ثم يقف مجهوداً دون أن يدركها .

ثم يجد أن جميع أعماله — لاتؤول واأسفاه ! إلا إلى مشيئة الطبيعة المكتوبة على كل موجود — وهى الموت)

وكأنه يقول ، وهو المتألم ، خلقنا لنتألم ، ثم لنفنى ؟!

(بيروت) خليل هنداوى

القصص

الهيكل العظمى

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور

فى الغرفة المجاورة لحجرة نومنا — نحن الأطفال — كان هناك هيكل عظمى معلقاً ، يجلجل فى الليل حين يداعب النسيم عظامه ، أما فى النهار فقد كنا نحركه بأنفسنا ، وكان يدرس لنا علم العظام طالب بمدرسة طب كامبل ، ذلك لأن مَن حولنا وطدوا العزم على أن يجعلوا منا أساتذة مبرّزين فى كل المواد ، ومهما كان نجاحنا فلم نكن لنخبر به أحداً ممن يعرفنا ، كما كنا نخفى ذلك عمن لا يمت إلينا بصلة .

مرت سنون اختفى فى أثنائها الهيكل من الحجرة ، كما محيت بقايا علم الأستولوجيا من ذاكرتنا ، ولم تترك وراءها أثرا ، وفى يوم من الأيام كان منزلنا فى هرج يموج بالضيوف ، وقدّر لى أن أقضى الليلة فى تلك الحجرة القديمة ، وعبثاً كنت أحاول إغراء الكرى ليطرق جفونى ؛ وبينا أنا أتقلب فى مضجعى سمعت كل ساعات الليل تدق واحدة إثر أخرى فى المعبد المجاور لى ، وبعد عدة دقائق انطفأ المصباح الموضوع فى ركن الحجرة ، بعد أن ظل شعاعه الخفّاق يضطرب ، فأسلمنى الظلام الى تذكر بعض أحباء فقدناهم ، وتأملت خفوت الشعاع فى محيط من الديجور القاتم ، ومن ثم قارنت بينه وبين خروج الروح من أجسامنا البشرية الضئيلة وهالنى الشبه العظيم بينهما .

وقد جعلنى تداعى الأفكار أفكر فى الهيكل العظمى ، وبينا أنا أرسم فى خيالى صورة للجسد البشرى الذى كان يكسو هاتيك العظام النخرة ، خيّل إلىّ أنى أسمع وقع أقدام تجوس خلال الحجرة وحول الفراش وتتلمس الجدران ، وأحسست أنى أسمع أنفاس المتجول المضطربة ، وكأنما أعياه البحث فمضى يذرع الغرفة جيئة وذهوباً ، وخدعت نفسى بأن ما أسمع ليس إلاّ من قبيل الوهم ، وما صوره لى الا الأرق الطويل ، وتشتت العقل ، ومحاكاة اضطراب أعصابى حاكى لوقع الأقدام ؛ ومع ذلك فقد عرتنى قشعريرة سرت فى جسدى ، ولكى أتخلص من هذا الوهم هتفت صارخاً : « مَن هنا ؟ » وإذا بالسارى يقف حذاء فراشى ويقول : « إنه أنا ، لقد جئت أفتش عن هيكلى الذى بارحته » . فرأيت من الجبن أن أتخاذل أمام مخلوق صوّره وهمى ، وجسّمه خيالى ؛ فأمسكت جيداً بالوسادة وقلت : إنه عمل جميل فى هذا الوقت المتأخر من الليل ! ما جدوى هذا الهيكل لك الآن ؟ وإذا بالصوت يصدر من الكلة نفسها ويقول : ياله من سؤال عجيب ! إن فى هذا الهيكل عظاماً كانت سياجاً يقى قلبى الفتى الذى لم يجاوز السادسة والعشرين ، أفلا يحق لى أن أراه مرة أخرى ؟ . فقلت له : « لاشك فى ذلك ، إنها رغبة سامية محترمة ، فلتبحث عنه ماشئت ، ودعنى أنعم بالكرى قليلا ! »

فقال الصوت : « أظنك هنا منفرداً ، حسن ، إنى لأغتنم هذه النهزة لأجلس برهة معك ، نتجاذب فيها الحديث ، وتلك سجيّتى ، فقديماً كنت أجلس إلى الرجال نتحادث ، ولكن فى الخمسة والثلاثين عاماً الأخيرة ، أبدلت ذلك بأنينى مع الرياح الذاوية عند قبور الأموات ، وهأنذا أتكلم مع فردٍ من بنى البشر لأول مرة منذ مماتى » .

وأحسست أن شخصاً يجلس قرب كلة سريرى ، فأذعنت للواقع وأجبت : « إن هذا فى الحقيقة لشىء جميل جدا ، وهيا بنا نتكلم فى شىء طريف » فقال الصوت : « إن أجمل شىء أتذكره هو تاريخ حياتى ، فدعنى أقصه عليك »

وحينذاك دقت الساعة دقتين فانطلق محدثاً وقال :

« عند ما كنت فى ميعة العمر فى دنياكم ، كنت أخشى شيئاً واحداً كما أخشى الموت ، ألا وهو زوجى ، وكانت احساساتى أشبه باحساسات سمكة علقت بالشص ، إذ كنت أحسبنى هذه السمكة ، وقد نزعت من ذلك الهدوء الذى شعرت به فى منزل الصبا . لقد مات زوجى عقب زواجى بشهرين ولم يكن حزنهم على وفاته أكثر من حزنهم على حظى التعس ، أما أبوه فقد نظر إلى وجهى ذات يوم وقال لزوجه : ألا ترين فى عينها نذير الشؤم ؟

ثم قال الصوت : « أمنصت أنت لقصتى : آمل أن تكون قد أعجبتك ! »

فقلت : « لقد أخذت على جماع مشاعرى وإن مبدأها ليشوق المرء إلى نهايتها . »

« ثم عاد الصوت يقول : دعني أتمها ، لقد عدتُ إلى منزل والدى ، والسرور يملأ نفسي ، واستنكر الناس هذا مني ، ولكني كنت أعرف جيداً أنى على قسط وفير من الجمال ، ألا ترى ذلك ؟ »

« فقلت : لاشك فى ذلك ، ولكن يجب أن تتذكرى أنى لم أرك أبداً . »

فصاح الصوت : « عجباً لك ! ألم ترنى مطلقاً ! إذن فما هذا الهيكل العظمى ، ها ها ، لا بأس عليك ، لقد كنت أمزح معك وهل فى مقدورى أن أعرفك كيف كان فى هاتين الحفرتين الغائرتين عينان يشع منهما السحر ، وألا تشابه بين الشفتين الياقوتيتين اللتين كانتا تفتران عن ابتسامة فتانة وبين تلك الأسنان القائمة التى تعودت أن تراها ، وإنى كلما حاولت أن أصور لك ما كنت عليه من جمال عبقرى ، وحسن وبهاء ورقة ، ابتسمت طربا كما أشعر بشىء من الحزن والغضب ، وإن أشهر أطباء عصرى لم يكن يخطر على بالهم أن عظامى ستكون يوماً وسيلة لتفهيم دروس الاستولوجى ، أتعرف طبيباً شاباً — كما أعرف — قارن بيني وبين زهرة (الشامباك) وما دار بخلده أن هذا الهيكل المحطم لفتاة كانت هى زهرة الجمال ، وكلما سرت شعرت بأنى قطعة من الماس المتلألىء ألقيت فى جوف الثرى ، وأن كل حركة منى تثير عاصفة من الاعجاب ، وكم أمضيت الساعات الطوال أتأمل هاتين اليدين اللتين تمناها كثير من الشبان المتيمين ، ولكن هذا الهيكل الجامد ، لايستطيع أن يحرك شعورك نحوى ، ولست أملك وسيلة أدحض بها هذا الافتراء الذى يوحيه إليك هيكلى ، ولذلك أشعر بمقت للرجال ، وهأنذا أطرد الكرى عن مقلتيك بوصفى لك شفتى الورديتين . »

فصحت قائلاً : « أقسم لك بجسدك ، أنك لو كنت محتفظة به حتى الآن لما كان للاستولوجى أثر فى ذاكرتى ، ولكان الذى يملؤها هو صورة الحب القوى العاصف يلوح لى فى غياهب الليل ، ولست أذكر لك أكثر من ذلك . »

فتابع الصوت كلامه قائلاً : « لم تكن لى فتاة شقيقة ، أما أخى الوحيد فقد وطد العزم على ألا يتزوج ، وكنت أقضى الوقت منفردة فى الحديقة أتفيأ ظلال الأشجار المتهدلة ، وأسبح فى بحر الخيال . فأتصور العالم كله يعبد جمالى ، وأن النجوم الزهر تسكر من حسن طلعتى ، وأن الرياح تدوى إعجاباً بى ، والعشب المخضر يضطرب ثملاً حين أخطر فوقه ، وكنت أحسب شباب العالم كلهم كالأعشاب التى أطؤها بقدمى ، ولكن قلبى لأمر ما كان ينطوى على شىء من الألم ، وكان لأخى صديق اسمه (شيكار) أتم دراسته بكلية الطب وأصبح طبيب العائلة ، وكنت أرقبه عن كثب من خلال الأستار ، أما أخى فقد كان رجلاً شاذاً اعتزل الناس ، وأوى إلى ركن مظلم ، وإذ كان (شيكار) صديقه الوحيد فقد أبيح لى أن ألقاه ، وكنت إذا مضيت إلى الحديقة مساء ، تخيلت كل عشبها (شيكارا) آخر . أمنصت أنت إلى ؟ فيم تفكر الآن ؟ »

فقلت : « أفكر فيما لو كنت (شيكارا) هذا ! »

فقال الصوت : « تمهل قليلاً ، وأنصت للقصة كاملة ، ففى يوم ممطر ، أصابتني الحمى ، وجاء الطبيب يعودنى ، وكانت هذه أول مرة ألقاه فيها ، وكنت أتكىء على حافة النافذة حتى تصبغ حمرة الشفق المودع وجنتى ، وحين جاء الطبيب تأمل فى وجهى ملياً فقلدته ، وتأملت فى نفسى نخيل إلى أن وجهى وردة حمراء ، قد ألقيت على وسادة بيضاء ، فسأل الطبيب أخى أن يجس النبض ، ولم أر طبيباً أجبن منه ، حتى أن أصابعه كانت تضطرب ولا تستقر حين أقبل يتلمس معصمى ، وفى النهاية سجـل حرارة الحمى التى انتابتنى ، أما أنا فقد قدرت خفقان قلبه ، أعندك شك فى ذلك ؟ »

فقلت : « كلا . كلا ، إن خفقات الفؤاد لتحكى قصته ! ! »

فقال الصوت : « بعد أن أبللت من مرضى المنهك ، ألفيت كل أحبابى قد رغبوا عني ، وأخيراً أصبح الطبيب يعود مريضاً فحسب ، وكنت فى هذه الأمسيات أرتدى ثوباً أبيض ، وقد تدلت عليه ضفائر شعرى المحلاة بزهور الياسمين الأبيض، ومن ثم أتخذ مقعدى المعتاد تحت أفنان الأشجار ومرآتى فى يدى ، وربما تظن أن رؤية الشخص لصورته وجماله فى المرآة تجعله ملولاً . ولكن الواقع غير ذلك ، لأنى لم أكن أرى نفسى بعينى رأسى ، لقد كنت شخصين فى جسد واحد ، فكنت أنظر لنفسى بعين الطبيب ، وشعرت بجنون الحب ، ولكن برغم هذا الدلال الذى أسرفت فيـه قد كانت هناك آهة حبيسة تتردد فى صدرى وتئن كما تئن رياح الليل ، ولم أكن فى ذلك الحين وحيدة ، بل كنت حين أسير أتطلع بعين

كثيبة إلى أصابع قدمي وأعجب ماذا تكون حالة الطبيب لو أنه شاهدني الآن، أما في الظهيرة، حين تتوسط ذكاء كبد السماء، ولا يسمع صوت هنا أو هناك إلا صيحة حدأة لا تلبث أن تتلاشى، فقد كان يمر خلف سور حديقتنا بائع الصقور ينادي «صقور زجاجية للبيع» وحينذاك أبسط على العشب خرقة بيضاء أجلس عليها وأعتمد رأسي بكفي، ويدي الأخرى تعبث بالحشائش، وكنت أتخيل أن هناك من يرقبني في مجلسي هذا ويعجب بي، ويود لو أنه طبع قبلة على أطراف أصابعي الوردية . .

ولكن كيف أتم لك قصتي، وفي استطاعتي أن أسامرك حتى الصباح ولكن ذلك يبغضها لك . . . . إذن دعني أظل في قصتي، أما الطبيب فحين مارس صناعته جيداً استأجر غرفة في الدور الأرضي بمنزلنا وجعلها عيادة للمرضى، وكنت أتسلى بسؤالي إياه عن الأدوية والسموم والمقدار الذي يميت من هذا الدواء أو ذاك، ولكن هذه الأحاديث أخذت طوراً آخر، فقد جعلتني أتأمل في فكرة الموت، وكان الحب والموت شاغلي تفكيري وحياتي.

مضى على ذلك ردح من الزمن، لاحظت فيه على الطبيب تشتت الذاكرة، وخيل إلي أنه يحتفظ في صدره بسر يخجل أن يحدثني عنه، وفي ذات ليلة جاء مرتدياً كثيراً من الملابس واستعار مركبة أخي، وهنا ثارت الدهشة في نفسي، ومضيت استفسره عن كل شيء، وبعد أن تجاذبت معه الحديث سألته: ألك أن تخبرني يا (دادا) عن وجهة الطبيب هذه الليلة وقد استعار مركبتك؟ . . . . فأجابني أخي في صوت أجش «الى الموت» فصحت به «أخبرني حقيقة أين هو ذاهب» . . فقال في شيء من الصراحة «مضى ليتزوج» فتعالت ضحكاتي طويلاً وقلت: أحقاً ماتقول؟

وعرفت حينذاك أن العروس وريثة ثرية، ستنفح الطبيب مبلغاً كبيراً من المال، ولكن لماذا كان يخدعني طيلة الوقت باخفائه ذلك عني، وهل توسلت اليه ألا يتزوج حتى لا يحطم قلبي؟ ولكن تلك سجية الرجال طبعوا عليها فتصديقهم ضرب من البلاهة، لقد عرفت في حياتي كلها رجلاً واحداً، ولكنه سرعان ما اختفى وتفقدته فلم أجده.

وبعد أن أتم الطبيب عمله وعاد الينا، وتهيأ للعمل سألته ضاحكة: لقد أحسنت يا دكتور، أعزمت على الزواج هذه الليلة؟ ولم يفقده سروري ابتسامة محياه فحسب، بل أثاره ذلك فسألته: «ولم لم توقد الثريات ولم تعزف الموسيقى؟»

فأجابني في تنهد: «وهل تحسبين في الزواج سعادة أو لذة؟» فانفجرت ضاحكة وقلت: لا، لا، لن يكون ذلك، وهل هناك عرس لم توقد فيه المصابيح ولم تعزف الموسيقى؟

وظللت أزعج أخي حتى أصدر أمره باحضار جماعة الموسيقى، وكنت أبتسم طيلة الوقت، وأتحدث عن العروس وحياتها، وما سأفعله حين تأتي المنزل. وسألته: خبرني يا دكتور هل ستظل تجس النبض؟ ثم انفجرت ضاحكة؛ وتم عقد الزواج في ساعة متأخرة من الليل، وقبل ابتدائه كان أخي والطبيب قد جلسا إلى خوان صغير يشربان كأساً من الخمر، ولما هتك القمر أسداف الظلام، سألت الطبيب: «أنسيت عرسك وقد حان الوقت؟» ومضيت إلى صيدليته أتلمس فيها قليلاً من مسحوق وضعته في كوبته حين كان مشغولاً عنها، وإذ ذاك رفعها الى فمه وتجرعها دفعة واحدة، ثم صوب إلي نظرة اخترقت شغاف قلبي وقال: الآن سأذهب الى حيث لا عودة لي أو مآب.

ولما صمتت الموسيقى للراحة، مضيت إلى غرفتي وارتديت ثياب عرسي الحريرية الموشاة بالذهب، وأخذت جواهري كلها ووضعت شارة العرس الحمراء على مفرقي، ومن ثم هيأت فراشي تحت شجرة في الحديقة.

وكانت ليلة جميلة ناعمة، ورياح الشمال الهادئة تقبل ما تمر عليه فتحمل الطمأنينة الى القلوب، وقد فاح في أرجاء الحديقة عطر الياسمين الشذي، وبينما الموسيقى آخذة في الهدوء شيئاً فشيئاً، كان وجه القمر يلتحف حجب السحاب المغبر القاتم، وبدأت أغيب عن الدنيا رويداً رويدا، وأفقد شعوري، وأغلقت عيني مبتسمة، وتذكرت مجيء الناس ومشاهدتهم إياي هنا، ولكن وا أسفاه على الملابس الحريرية المذهبة؛ وحين استيقظت على صوت لغط حولي، ألفيت ثلاثة شبان يدرسون علم العظام على هيكلي، فجاشت في نفسي الآلام، وأخذت زهرات الشباب تتفتح عن أكمامها، وإذا بالأستاذ يشير بعصاه الى عظامي مسمياً إياها بأسمائها العلمية، ولكن أترى أثراً لهذه الابتسامة الأخيرة، وهل أعجبتك القصة؟ فقلت يالها من قصة رائعة!

وفي هذه اللحظة رنت أول صيحة وقلت: «أأنت هنا؟» فلم يجبني سوى الصدى، وحينذاك كانت أشعة الصباح قد نفدت الى الحجرة.

حسين محمد محمود

استدراك

فاتنا أن نذكر أن قصة المغفل المخدوع التي نشرناها في العدد الماضي ترجمها كاتبها عن الانجليزية